الربع الثالث ـ رُبع المهلكات

كتاب شرح عجائب القلوب

اعلم : أن أشرف ما فى الإنسان قلبه ، فإنه العالم بالله ، العامل له ، الساعى إليه ، المقرب المكاشف ، بما عنده ، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد . ومن عرف قلبه عرف ربه ، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم ، والله يحول بين المرء وقلبه ،وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته ، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين ، وأساس طريق السالكين .

● فصل فى مداخل إبليس فى قلب الإنسان

اعلم : أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى ، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى ، مائل عن ذلك ، والتطارد فيه بين جندى الملائكة والشياطين دائم ، إلا أن ينفتح القلب لأحدهما ، فيتمكن ، ويستوطن ، ويكون اجتياز الثانى اختلاساً ، كما قال ــ تعالى ــ: ﴿ **مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاس** ﴾[1]، وهو الذى إذا ذكر الله خنس ، وإذا وقعت الغفلة انبسط ، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله ــ تعالى ــ، فإنه لا قرار له مع الذكر .

واعلم : أن مثل القلب كمثل حصن ، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ، ويملكه ويستولى عليه ، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله ، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد ، وهى كثيرة ، إلا أننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان . فمن أبوابه العظيمة : الحسد ، والحرص ، فمتى كان العبد حريصاً على شىء ، أعماه حرصه وأصمه ، وغطى نور بصيرته التى يعرف بها مداخل الشيطان . وكذلك إذا كان حسوداً ، فيجد الشيطان حينئذ الفرصة ، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته ، وإن كان منكراً أو فاحشاً . ومن أبوابه العظيمة : الغضب ، والشهوة ، والحدة ، فإن الغضب غول العقل ، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان ، وقد روى أن إبليس يقول : إذا كان العبد حديداً ، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . ومن أبوابه : حب التزيين فى المنزل والثياب والأثاث ، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها ، والتزين بالثياب ، والأثاث ، فيخسر الإنسان طول عمره فى ذلك . ومن أبوابه : الشبع ، فإنه يقوى الشهوة ، ويشغل عن الطاعة . ومنها : الطمع فى الناس ، فإن من طمع فى شخص ، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه ، وداهنه ، ولم يأمره بالمعروف ، ولم

---

(١) الناس : ٤ .

ينهه عن المنكر . ومن أبوابه : العجلة ، وترك التثبت ، وقد قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم : « **العجلة من الشيطان ، والتأنى من الله ــ تعالى ــ** »[1] . ومن أبوابه : حب المال ، ومتى تمكن من القلب أفسده ، وحمله على طلب المال من غير وجهه ، وأخرجه إلى البخل ، وخوفه الفقر ، فمنع الحقوق اللازمة . ومن أبوابه : حمل العوام على التعصب فى المذاهب ، دون العمل بمقتضاها . ومن أبوابه أيضاً : حمل العوام على التفكير فى ذات الله ــ تعالى ــ، وصفاته ، وفى أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم فى أصل الدين . ومن أبوابه : سوء الظن بالمسلمين ، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه ، احتقره وأطلق فيه لسانه ، ورأى نفسه خيراً منه ، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان ، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن ، والمنافق يبحث عن عيوبه .

وينبغى للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم ، لئلا يساء به الظن ، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان ، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة ، وسيأتى الكلام على هذه الصفات إن شاء الله ــ تعالى ــ مفصلاً . إذا قُلعت من القلب أصول هذه الصفات ، بقى للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار ، فيمنعه من ذلك ذكر الله ــ تعالى ــ، وعمارة القلب بالتقوى .

ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز ، فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ ، وإن كان بين يديك شىء من ذلك وهو جائع ، لم يندفع عنك بمجرد الكلام ، فكذلك القلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر . فأما القلب الذى غلب عليه الهوى ، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه ، فلا يتمكن الذكر من سويدائه ، فيستقر الشيطان فى السويداء . وإذا أردت مصداق ذلك ، فتأمل هذا فى صلاتك ، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك فى مثل ذلك الموطن ، بذكر السوق ، وحساب المعاملين ، وتدبير أمر الدنيا .

واعلم : أنه قد عفى عن حديث النفس ، ويدخل فى ذلك ما هممت به ، ومن ترك ذلك خوفاً من الله ــ تعالى ــ كتبت له حسنة ، وإن تركه لعائق ، رجونا المسامحة ، إلا أن يكون عزماً ، فإن العزم على الخطيئة خطيئة ، بدليل قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل : ما بال المقتول ؟ قال : شنه كان حريصاً على قتل صاحبه** »[2] . وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم ، والأعمال بالنية ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى « البر والصلة » باب « ما جاء فى التأنى والعجلة » رقم [٢٠٨١] وقال : هذا الحديث غريب وفيه عبد المهيمن بن عباس ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم وضعّفه من قبل حفظه .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الإيمان » باب ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ رقم [٣١] . ــ ومسلم فى « الفتن » رقم [١٤ ، ١٥] ، المسند للإمام أحمد [٤٠١/٤ ، ٤٠٣] .

وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة ، ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها ، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها ، وكل هذا متعلق بعقد القلب .

● فصل فى ثبات القلوب على الخير

وقد ورد فى الحديث أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كان يقول : « **يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، يامصرف القلوب اصرف قلبنا إلى طاعتك** »(١) . وفى حديث آخر : « **مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح** »(٢).

واعلم : أن القلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة :

القلب الأول : قلب عمر بالتقوى ، وزكى بالرياضة ، وطهر عن خبائث الأخلاق ، فتفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ، فيمده الملك بالهدى .

القلب الثانى : قلب مخذول ، مشحون بالهوى ، مندس بالخبائث ، ملوث بالأخلاق الذميمة ، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه ، ويضعف سلطان الإيمان ، ويمتلىء القلب بدخان الهوى ، فيعدم النور ، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان ، لا يمكنها النظر ، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ .

والقلب الثالث : قلب يبتدىء فيه خاطر الهوى ، فيدعوه إلى الشر ، فيلحقه خاطر الإيمان ، فيدعوه إلى الخير . مثاله ، أن يحمل الشيطان حملة على العقل ، ويقوى داعى الهوى ويقول : أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون أنفسهم فى هواها ، حتى يعد جماعة من العلماء ، فتميل النفس إلى الشيطان ، فيحمل الملك حملة على الشيطان ، ويقول : هل هلك إلا من نسى العاقبة ، فلا تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم ، أرأيت لو وقفوا فى الصيف فى الشمس ولك بيت بارد ، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة ؟ أفتخالفهم فى حر الشمس ، ولا تخالفهم فيما يئول إلى النار ؟ فتميل النفس إلى قول الملك ، ويقع التردد بين الجندين ، إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به ، فمن خلق للخير يسر له ، ومن خلق للشر يسر له : ﴿ **فَمَن يُرِد اللهُ أَن يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّه يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فى السَّمَاءِ** ﴾(٣) . اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه .

● كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة امراض القلب

وذلك فى فصول : ***اعلم*** : أن الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين ، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة ، تنخرط بصاحبها فى سلك الشيطان ، وأمراض تفوت جاه الأبد ، فينبغى

---

(١) رواه ابن ماجه فى المقدمة باب « فيما أنكرت الجهمية » رقم [١٩٩] وسنده صحيح .
(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده [٤١٩/٤] ، وابن ماجه فى سننه فى المقدمة باب « فى القدر » رقم [٨٨] .
(٣) الأنعام : ١٢٥ .

أن تعرف العلل ثم التشمير فى معالجتها ، ونحن نشير إلى جمل من الأمراض ، وكيفية معالجتها فى الجملة من غير تفصيل ، فإن ذلك يأتى مبيناً إن شاء الله ــ تعالى ــ.

الفصل الأول ـ فى فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق

وقد ذكر شيء من ذلك فى آداب الصحبة . **واعلم** : أن الناس قد تكلموا فى حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته ، ولم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل منهم ما حضر فى ذهنه ، وكشف الحقيقة فى ذلك أن يقال : كثيراً ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق ، فيقال : فلان حسن بالخلق والخُلق . أى حسن الظاهر والباطن ، فالمراد بالخَلق : الصورة الظاهرة ، والمراد بالخُلق : الصورة الباطنة ، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس . فالجسد مدرك بالبصر ، والنفس مدركة بالبصيرة ، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة أو قبيحة ، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر ، ولذلك عظم الله ــ سبحانه وتعالى ــ أمره فقال : ﴿ **إنى خالِقٌ بَشَراً من طين * فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحى** ﴾[1] ، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين ، والروح منسوب إليه ــ سبحانه وتعالى ــ، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقاً حسناً ، وإن كانت قبيحة سميت خلقاً سيئاً .

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة ، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر . **والجواب** : أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى ، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشى يستأنس ، والكلب يعلم ترك الأكل ، والفرس تعلم حسن المشى وجودة الانقياد ، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح ، وبعضها مستصعبة . وأما خيال من اعتقد أن ما فى الجبلَّة لا يتغير ، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية ، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط ، وأما قمعها بالكلية فلا ، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية فى الجبلة ، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية ، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه . وقد قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **أشدَّاء على الكُفَّار** ﴾[2] . ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب ، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار ، وقال ــ تعالى ــ: ﴿ **والكَاظمينَ الغيْظ** ﴾[3] . ولم يقل : الفاقدين الغيظ . وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والتقلل ، قال الله تعالى ــ: ﴿ **وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا** ﴾[4] . إلا أن الشيخ المرشد للمريد إذا

---

(١) ص ٧١ ، ٧٢ . (٢) الفتح : ٢٩ . (٣) ال عمران : ١٣٤ . (٤) الأعراف : ٣١ .

رأى له ميلاً إلى الغضب والشهوة ، حسن أن يبالغ فى ذمهما على الإطلاق ليرده إلى التوسط ، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً ، وهو وسط بين طرفى التقتير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَم يَقتروا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً﴾[1] .

واعلم أن هذا الاعتدال : تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق ، فكم من صبى يخلق صادقاً سخياً حليماً ، وتارة يحصل بالاكتساب ، وذلك بالرياضة ، وهى حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب ، فمن أراد تحصيل خلق الجود ، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له . وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين ، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً فى ذلك ، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة ، أو فقيهاً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار ، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه ، إلا أنه لا ينبغى أن يطلب تأثير ذلك فى يومين أو ثلاثة ، وإنما يؤثر مع الدوام ، كما لا يطلب فى النمو علو القامة فى يومين أو ثلاثة . وللدوام تأثير عظيم . وكما لا ينبغى أن يستهان بقليل الطاعات ، فإن دوامها يؤثر ، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب .

وكما أن تعاطى أسباب الفضائل يؤثر فى النفس ويغير طبعها ، فكذلك مساكنة الكسل أيضاً يصير عادة ، فيحرم بسببه كل خير . وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير ، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر . قلت : ويؤيد ذلك قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** »[2] .

الفصل الثانى ـ فى بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعتدال فى الأخلاق هو الصحة فى النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض ، فاعلم أن مثال النفس فى علاجها كالبدن فى علاجه ، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء ، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق ، والتغذية بالعلم . وكما أن البدن إذا كان صحيحاً ، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة ، وإن كان مريضاً ، فشأنه جلب الصحة إليه ، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق ، فينبغى أن يسعى بحفظها وجلب مزيد القوة إليها ، وإن كانت عديمة الكمال ، فينبغى أن يسعى بجلب ذلك إليه . وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج إلا بضدها ، إن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة ، فكذلك الأخلاق الرذيلة التى هى من مرض القلب ، علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالعلم ، ومرض البخل بالسخاء ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى .

(١) الفرقان : ٦٧ . (٢) سبق تخريجه .

وكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء ، وشدة الصبر عن المشتهيات لصلاح الأبدان المريضة ، فكذلك لابد من احتمال المجاهدة ، والصبر على مداواة مرض القلب ، بل أولى ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً . وينبغي للذى يطبُّ نفوس المريدين ، أن لا يهجم عليهم بالرياضة فى فن مخصوص ، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، إذ ليس علاج كل مريض واحداً ، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه ، وإذا رأى متكبراً حمله على ما يوجب التواضع ، أو شديد الغضب ألزمه الحلم . وأشد حاجة الرائض لنفسه ، قوة العزم ، فمتى كان متردداً بَعُدَ فلاحُه ، ومتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبَّر ، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لئلا تعاود ، كما قال رجل لنفسه : تتكلمين فيما لا يعنيك ؟ لأعاقبنك بصوم سنة .

الفصل الثالث ـ فى علامات مرض القلب وعوده إلى الصحة

وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه

اعلم : أن كل عضو خلق لفعل خاص ، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل ، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب ، فمرض اليد تعذر البطش ، ومرض العين تعذر الإبصار ، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذى خلق لأجله ، وهو العلم والحكمة والمعرفة ، وحب الله ــ تعالى ــ وعبادته ، وإيثار ذلك على كل شهوة . فلو أن الإنسان عرف كل شيء ولم يعرف الله ــ سبحانه ــ، كان كأنه لم يعرف شيئاً . **وعلامة المعرفة** : الحب ، فمن عرف الله أحبه ، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات ، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة التى تؤثر أكل الطين على أكل الخبز ــ وقد سقطت عنها شهوة الخبز ــ مريضة . ومرض القلب خفى قد لايعرفه صاحبه ، فلذلك يغفُل عنه ، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه ، لأن دواءه مخالفة الهوى ، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء ، والمرض قد استولى عليهم ، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالاً ، واندرس هذا العلم ، وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية ، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات فهذه علامة أصل المرض . وأما عافيته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة ، فهو أن ينظر إلى العلة ، فإن كان يعالج داء البخل ، فعلاجه بذل المال ، ولكنه لا يسرف ، ويصير إلى حد التبذير ، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة ، فيكون داءً أيضاً ، بل المطلوب الاعتدال .

وإذا أردت أن تعرف الوسط ، فانظر إلى نفسك ، فإن كان إمساك المال وجمعه ألذ عندك ،

وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فعالج نفسك على البذل ، وإن صار البذل للمستحق ألذ عندك ، وأخف عليك من الإمساك ، فقد غلب عليك التبذير ، فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، ولا تزال تراقب نفسك ، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها ، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال ، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج ، أو بذله لحاجة محتاج ، فكل قلب صار كذلك ، فقد جاء الله سليماً فى هذا المقام . ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق ، حتى لا تكون له علاقة بشىء من الدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها ، غير ملتفتة إليها ، ولا متشوفة إلى أسبابها ، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة .

ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض ، بل هو أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة ، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول فى كل يوم عدة مرات: ﴿ **اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتقيم** ﴾[1] ، ومن لم يقدر على الاستقامة ، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح . ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة ، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد ، وليصبر ذو العزم على مضض هذا الأمر ، فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له ، فلو رد إلى الثدى لكرهه ، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة . تحمل مشقة سفر أيام لتنعم الأبد ، فعند الصباح يحمد القوم السُّرى .

واعلم : أن الله ــ تعالى ــ إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة ، لم تخف عليه عيوبه ، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم ، يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عينه . فمن أراد الوقوف على عيب نفسه ، فله فى ذلك أربع طرق :

الطريقة الأولى : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس ، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها ، وهذا قد عز فى هذا الزمان وجوده ، فمن وقع به ، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغى أن يفارقه .

الطريقة الثانية : أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً ، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله . وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يقول : رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا . وسأل سلمان ــ رضى الله عنه ــ لما قدم عليه من عيوبه ، فقال : سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين : حلة بالليل ،

(١) الفاتحة : ٦

وحلة بالنهار فقال : هل بلغك غير هذا ؟ قال : لا ، قال : أما هذا فقد كفيتهما . وكان عمر ــ رضى الله عنه ــ يسأل حذيفة : هل أنا من المنافقين ؟ وهذا لأن كل من علت مرتبته فى اليقظة زاد اتهامه لنفسه ، إلا أنه عز فى هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة ، لأنه قل فى الأصدقاء من يترك المداهنة ، فيخبر بالعيب ، أو يترك الحسد ، فلا يزيد على قدر الواجب . وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم ، ونحن الآن فى الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا . وهذا دليل على ضعف الإيمان ، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب ، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة ، واشتغلنا بقتلها ، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى .

الطريقة الثالثة : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فإن عين السخط تبدى المساوىء ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه ، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفى عنه عيوبه .

الطريقة الرابعة : أن يخالط الناس ، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم ، يجتنبه .

● فصل فى شهوات النفوس

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة ، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء ، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل ، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها ، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر ، فأخذوا يتركون كل ما تشتهيه النفس ، وهذا ظلم لها بإسقاط حقها ، فإن لها حقاً بدليل قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **إن لنفسك عليك حقاً** » حتى إن قائلاً منهم يقول : لى كذا وكذا سنة أشتهى كذا ، فلا أتناوله ، وهذا انحراف عن الحِلّ وخلاف سنة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، فإنه كان يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما ، فلا يلتفت إلى زاهد قل علمه ، فحرم نفسه حظها من المشتهى على الإطلاق ، فإنه إلى الظلم أقرب منه إلى العدل ، وإنما يترك المشتهى إذا صعبت الطريق إليه ، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه ، أو يخاف من تناوله انحلال عزمه ، فتطمع النفس فى استدامته ، أو يحذر من ذلك زيادة شبع ، فيقله عن عبادته ، فأما تناوله فى بعض الأوقات لتقوية النفس ، فذلك كالطب للمريض ، يمدح ولا يذم ، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك .

● بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصى ، ثم ظن أنه قد هذب خلقه ، واستغنى عن المجاهدة ، وليس كذلك ، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين ، وقد وصفهم الله ــ تعالى ــ فقال : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾[1] ، وقال : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] ، وقال ــ تعالى ــ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[3] إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾[4] ، وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾[5] . إلى آخر السورة ، فمن أشكل عليه حاله ، فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده .

وقد وصف رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ المؤمن بصفات كثيرة ، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق . ففى « الصحيحين » من حديث أنس ــ رضى الله عنه ــ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** »[6] . وفيهما أيضاً من حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ، عنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** »[7] . وفى حديث آخر : « **أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً** »[8] . ومن حسن الخلق : احتمال الأذى ، ففى « الصحيحين » أن أعرابياً جذب رداء النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ حتى أثرت حاشيته فى عاتقه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، ثم قال : يامحمد ،مر لى من مال الله الذى عندك ،فالتفت إليه رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، ثم ضحك ، ثم أمر له بعطاء . وكان إذا آذاه قومه قال : « **اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون** »[9] .

وكان أويس القرنى إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول : ياإخوتاه ، إن كان ولابد فآرمونى

---

(١) الأنفال : ٢ ــ ٤ . (٢) التوبة : ١١٢ . (٣) ، (٤) المؤمنون : ١ ــ ١٠ . (٥) الفرقان : ٦٣ .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الإيمان » باب [٧] رقم [١٣] ، ومسلم فى « الإيمان » رقم [٧٢٧١] ، والإمام أحمد فى المسند [٨٩/١] ، [١٧٦/٣ ، ٢٠٦ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩] .

(٧) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الأدب » باب « من كان يؤمن بالله فلا يؤذ جاره » رقم [٦٠١٩] . ومسلم فى الإيمان رقم [٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧] ، الإمام أحمد فى مسنده [١٧٤/٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩] ــ [٧٦/٣] ــ [٣١/٤] ــ [٤١٢/٥] ــ [٦٩/٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥] .

(٨) رواه الحاكم فى مستدركه [٣/١] وصححه ، الإمام أحمد فى المسند [٥٠/٢ ، ٤٧٢ ، ٥٢٧] ، انظر كنز العمال [حديث ٥١٣٠ ، ٥١٣١ ، ٥١٧٩ ، ٥٢٠٢ ، ٥٢٠٣] .

(٩) رواه البخارى فى كتاب « الأنبياء » باب حديث « بينا امرأة ترضع ابنا » رقم [٣٤٧٧] ، ورواه مسلم فى « الجهاد » رقم [١٠٤] ، الإمام أحمد فى مسنده [٣٨٠/١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤١] .

بالصغار لئلا تدموا ساق فتمنعونى من الصلاة . وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البرارى ، فاستقبله جندى فقال : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فضرب رأسه فشجه ، فلما أخبر أنه إبراهيم ، جعل يقبل يده ورجله ، فقال : إنه لما ضرب رأسى ، سألت الله له الجنة ، لأنى علمت أنى أؤجر بضربه إياى فلم أحب أن يكون نصيبى منه الخير ، ونصيبه منى الشر . واجتاز بعضهم فى سكة ، فطرح عليه رماد من السطح ، فجعل أصحابه يتكلمون . فقال : من استحق النار فصولح على الرماد ، ينبغى له أن لا يغضب . فهذه نفوس ذللت بالرياضة ، فاعتدلت أخلاقهم ، ونقيت عن الغش بواطنها ، فأثمرت الرضى بالقضاء ، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التى وجدها هؤلاء ، فينبغى أن يداوم الرياضة ليصل ، فإنه بعدُ ما وصل .

● فصل فى رياضة الصبيان فى اول النشوء

اعلم : أن الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه جوهرة ساذجة ، وهى قابلة لكل نقش ، فإن عُوِّدَ الخير نشأ عليه ، وشاركه أبواه ومؤدبه فى ثوابه ، وإن عوِّدَ الشر نشأ عليه ، وكان الوزر فى عنق وليه ، فينبغى أن يصونه ويؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ، ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر . بل ينبغى أن يراقبه من أول عمره ، فلا يستعمل فى رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء ، وذلك علامة النجابة وهى مبشرة بكمال العقل عند البلوغ ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه . وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغى أن يعلم آداب الأكل ، ويعوده أكل الخبز وحده فى بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهائم ، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملونة والابريسم ، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين ، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم ، ثم يشغله فى المكتب بتعلُّم القرآن والحديث وأحاديث الأخيار ، ليغرس فى قلبه حب الصالحين ، ولا يحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق .

ومتى ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود ، فينبغى أن يكرم عليه ، ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكاشف ، فإن عاد عوتب سراً وخُوِّفَ من اطلاع الناس عليه ، ولا يكثر عليه العتاب ، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة ، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه . وينبغى للأم أن تخوفه بالأب ، وينبغى أن يمنع النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل ، ولا يمنع النوم ليلاً ، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه . ويتعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم . ويعود المشى والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل . ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه أبواه ،

أو بمطعمه أو ملبسه . ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره . ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبى مثله ، ويعلم أن الأخذ دناءة ، وأن الرفعة فى الإعطاء . ويقبح عنده حب الذهب والفضة . ويعود أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ويمنع من كثرة الكلام .

ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً ، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه ، وأن يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه . ويمنع من فحش الكلام ، ومن مخالطة من يفعل ذلك ، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء . ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب فى لعب جميل ، ليستريح به من تعب التأديب ، كما قيل : روح القلوب تع الذكر . وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم . وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة ، و لم يسامح فى ترك الطهارة ليتعود ، ويخوف من الكذب والخيانة ، وإذا قارب البلوغ ، ألقيت إليه الأمور .

واعلم : أن الأطعمة أدوية ، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله ــ تعالى ــ، وأن الدنيا لا بقاء لها ، وأن الموت يقطع نعيمها ، وهو منتظر فى كل ساعة ، وأن العاقل من تزود لآخرته ، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا فى قلبه ، كما يثبت النقش فى الحجر .

قال سهل بن عبد الله : كنت ابن ثلاث سنين ، وأنا أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار ، فقال لى خالى يوماً : ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ قلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك : الله معى ، الله ناظر إلَىّ ، الله شاهدى ، فقلت ذلك ليالى ، ثم أعلمته ، فقال : قلها فى كل ليلة إحدى عشرة مرة . فقلت ذلك ، فوقع فى قلبى حلاوته ، فلما كان بعد سنة ، قال لى خالى : احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل قبرك ، فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت له حلاوة فى سرى ، ثم قال لى خالى : ياسهل من كان الله معه ، وهو ناظر إليه ، وشاهد عليه ، هل يعصيه ؟ إياك والمعصية ومضيت إلى المكتب ، وحفظت القرآن ، وأنا ابن ست سنين أو سبع ، ثم كنت أصوم الدهر ، وقوتى من خبز الشعير ، ثم بعد ذلك كنت أقوم الليل كله .

● فصل فى شروط الرياضة

واعلم : أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين ، أصبح بالضرورة مريداً لها ، زاهداً فى الدنيا ، فإن من كان معه خرزة ، فرأى جوهرة نفيسة ، لم يبق له رغبة فى الخرزة ، فإذا قيل له : بعها بالجوهرة ، أسرع فى ذلك .

واعلم : أن من رزقه الله ــ تعالى الانتباه لذلك ، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لابد من تقديمه ، ومعتصماً لابد من التمسك به ، وحصناً لابد من التحصن به . فأما الشرط ، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب . وأما المعتصم ، فشيخ يدله على الطريق لئلا تختطفه الشياطين

فى السبل وأما الحصن ، فالخلوة ، وعليه من الوظائف مخالفة الهوى ، وكثرة الذكر والاقتصاد فى الأوراد . ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً ، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ، ولا يخلو إلا بطول المجاهدة ، فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته فى التدريج ، فأما تفصيل الرياضة فى كل صفة ، فسيأتى إن شاء الله ــ تعالى ــ.

كتاب كسر الشهوتين : شهوة البطن ، وشهوة الفرج

شهوة البطن من أعظم المهلكات ، وبها أخرج آدم ــ عليه السلام ــ من الجنة ، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة فى المال ، ويتبع ذلك آفات كثيرة ، كلها من بطر الشبع . وفى الحديث ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **المؤمن يأكل فى مِعًى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء** »[1] . وفى حديث آخر : « **ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلْبَه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه** »[2] . وقال عقبة الراسبى : دخلت على الحسن وهو يتغدى ، فقال : هلم ، فقلت : أكلت حتى لا أستطيع ، فقال : سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟!

وقد بالغ جماعة من الزهاد فى التقلل من الأكل والصبر على الجوع ، وقد بينا عيب ما سلكوا فى غير هذا الكتاب ، ومقام العدل فى الأكل رفع اليدين مع بقاء شىء من الشهوة ، ونهاية المقام الحسن قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه** »[3] . فالأكل فى مقام العدل يصح البدن وينفى المرض ، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهيه ، ثم يرفع يده وهو يشتهيه ، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى ، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض ، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة ، وليس كذلك ، ومن مدح الجوع ، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التى ذكرناها

وطريق الرياضة فى كسر شهوة البطن أن من تعود استدامة الشبع ، فينبغى له أن يقلل من مطعمه يسيراً مع الزمان ، إلى أن يقف على حد التوسط الذى أشرنا إليه ، وخير الأمور أوساطها ، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات ، ويكون سبباً لبقاء القوة ، فلا يحس المتناول

---

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة باب المؤمن يأكل فى معى واحد ، مسلم فى الأشربة باب المؤمن يأكل [٢٤/١٤ ــ ٢٥] ، المسند [٢١/٢] ، الترمذى فى الأطعمة [١٨٧٨] ، ابن ماجه [٣٢٥٦] ، [٣٢٥٧] ، [٣٢٥٨] فى الأطعمة ، الدارمى [٩٩/٢] .

(٢) ، (٣) إسناده صحيح أخرجه الإمام أحمد فى المسند [١٣٢/٤] والترمذى فى « الزهد » [٢٤٨٦] باب « ما جاء فى كراهية كثرة الأكل » ، وقال : حديث حسن صحيح ، ابن ماجه [٣٣٤٩] فى « الأطعمة » باب الاقتصاد فى الأكل ، والحاكم فى المستدرك [٣٣١/٤] وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

بجوع ولا شبع ، فحينئذ يصح البدن ، وتجتمع الهمة ، ويصفو الفكر ، ومتى زاد فى الأكل أورثه كثرة النوم ، وبلادة الذهن ، وذلك بتكثير البخار فى الدماغ حتى يغطى مكان الفكر ، وموضع الذكر ، ويجلب أمرضاً أخر . وليحذر من ترك شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء ، وقد كان بعضهم يشترى الشهوة ويعلقها فى بيته وهو زاهد فيها ، يستر بها زهده ، وهذا هو الزهد ، فى الزهد بإظهار ضده ، وهو عمل الصديقين ، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين ، والثانية أمر . وأما شهوة الفرج ، فاعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمى لفائدتين :

إحداهما : بقاء النسل ، والثانية ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة ، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق ، لا يعظم إليه الشوق ، إلا أنه إذا لم ترد هذه الشهوة إلى الاعتدال ، جلبت آفات كثيرة ، ومحناً ، ولولا ذلك ما كان النساء حبائل الشيطان . وفى الحديث أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **ما تركت فى الناس بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء** »[1] . وقال بعض الصالحين : لو ائتمننى رجل على بيت مال ، لظننت أن أؤدى إليه الأمانة ، ولو ائتمننى على زنجية أخلو بها ساعة واحدة ، ما ائتمنت نفسى عليها . وعن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان** »[2] .

وقد ينتهى الإفراط فى هذه الشهوة ، حتى تصرف همة الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة ، وربما آل إلى الفواحش ، وقد تنتهى بصاحبها إلى العشق ، وهو أقبح الشهوات ، وأجدرها أن تستحى منه ، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال ، والجاه ، واللعب بالنرد ، والشطرنج ، والطنبور ، ونحو ذلك ، فتستولى هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها . ويسهل الاحتراز عن ذلك فى بدايات الأمور ، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد ، وقد لا ينجع ، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله ، فما أهون منعها بصرف عنانها ، ومثال من يعالجه بعد استحكامه ، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه ، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء ، وما أعظم التفاوت بين الأمرين !!

● كتاب آفات اللسان

آفاته كثيرة متنوعة . ولها فى القلب حلاوة ، ولها بواعث من الطبع ، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت ، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت ، ثم نتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله ــ تعالى ــ.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « النكاح » باب « ما يتقى من شؤم المرأة » ، رقم [٥٠٩٦] .
(٢) فى مجمع الزوائد [٢٢٥/٥] عزاه الهيثمى للطبرانى فى الأوسط وقال : فيه عبد الله بن إبراهيم بن خالد المصيصى (متروك) .

واعلم : أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر . وفى الحديث ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **من يضمن لى ما بين لَحْيَيه ، وما بين رجليه أضمنْ له الجنة** »[1] وفى حديث آخر: « **لا يستقيمُ إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه** »[2] . وفى حديث معاذ فى آخره : « **كف عليك هذا** » فقلت : يارسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : « **ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ، أو قال : على مناخرهم ، إلا حصائد ألسنتهم ؟** »[3] . وفى حديث آخر : « **من كف لسانه ستر الله عورته** »[4] . وقال ابن مسعود : ما شىء أحوج إلى طول سجن من لسانى .

وقال أبو الدرداء : أنصف[*] أذنيك من فيك ، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد ، لتسمع أكثر مما تتكلم به . وقال مخلد بن الحسين : ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها .

© ذكر آفات الكلام[5] :

* ***الآفة الأولى*** : الكلام فيما لا يعنى . **واعلم** : أن من عرف قدر زمانه ، وأنه رأس ماله ، لم ينفقه إلا فى فائدة ، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعنى ، لأنه من ترك ذكر الله ــ تعالى واشتغل فيما لا يعنى ، كان كمن قدر على أخذ جوهرة ، فأخذ عوضها مدّرة ، وهذا خسران العمر . وفى الحديث الصحيح : أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** »[6] . وقيل للقمان الحكيم : ما بلغ من حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كفيته ، ولا أتكلم بما لا يعنينى. وقد روى أنه دخل على داود ــ عليه السلام ــ وهو يسرد درعاً ، فجعل يتعجب مما رأى ، فأراد أن يسأله عن ذلك ، فمنعته حكمته فأمسك ، فلما فرغ داود ــ عليه السلام ــ، قام ولبس الدرع ثم قال : نعم الدرع للحرب . فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله .

* ***الآفة الثانية*** : الخوض فى الباطل ، وهو الكلام فى المعاصى ، كذكر مجالس الخمر ، ومقامات الفساق . وأنواع الباطل كثيرة . وعن أبى هريرة ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إن العبد ليتكلم بالكلمة يزلُّ بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب** »[7] . وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة[8] للشخص لبيان غلطه

---

(١) رواه البخارى فى « الرقاق » باب « حفظ اللسان » رقم [٦٤٧٤] والإمام أحمد فى المسند [٣٣٣/٥] .
(٢) المسند [١٩٨/٣] (٣)رواه الإمام أحمد فى مسنده [٢٣٦/٥ ، ٢٣٧] ــ وابن ماجه « فى الفتن » باب : « كف اللسان عند الفتنة » رقم [٣٩٧٣] . (٤) فى كنز العمال [٧١٦٥] عزاه لابن أبى الدنيا عن عمر
(*) أى اعدل بين فمك وأذنيك . (٥) وهى « ١٢ » آفة ، قلت هذا تنبيهًا .
(٦) رواه الترمذى فى « الزهد » باب [١١] [١٩٦/٩] وقال : هذا حديث غريب . وابن ماجه فى « الفتن » باب « كف اللسان فى الفتنة » رقم [٣٩٧٦] (٧) المسند [٣٧٩/٢] . (٨) لاحَاهُ مُلاَحاة أى نازَعَهُ .

وإفحامه ، والباعث على ذلك التَّرفُّع . فينبغى للإنسان أن ينكر المنكر من القول ، ويبين الصواب ، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة ، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين ، فأما إذا كان فى أمور الدنيا ، فلا وجه للمجادلة فيه ، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل ، وأعظم من المراء الخصومة ، فإنها أمر زائد على المراء(*) .

وعن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم** » . وهذه الخصومة نعنى بها الخصومة بالباطل أو بغير علم ، فأما من له حق فالأولى أن يصدف(١) عن الخصومة مهما أمكن لأنها ، توغر الصدر ، وتهيج الغضب ، وتورث الحقد ، وتخرج إلى تناول العرض .

• ***الآفة الثالثة*** : التقعر فى الكلام(**) ، وذلك يكون بالتشدق ، وتكلف السجع . وعن أبى ثعلبة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى يوم القيامة مساويكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون** » . ولا يدخل فى كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب ، والتذكير من غير إفراط ، ولا إغراب ، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب ، وتشويقها ، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك .

• ***الآفة الرابعة*** : الفحش والسب والبذاء ، ونحو ذلك ، فإنه مذموم منهى عنه ، ومصدره الخبث واللؤم . وفى الحديث : « **إياكم والفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش** (٢) . « **الجنة حرام على كل فاحش** »(٣) . وفى حديث آخر : « **ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء** » (٤).

واعلم : أن الفحش والسب والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ما يكون ذلك فى ألفاظ الجماع وما يتعلق به ، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها . ومن الآفات : الغناء وقد سبق فيه كلام فى غير هذا الموضع .

• ***الآفة الخامسة*** : المزاح ، أما اليسير منه ، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً . فإن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، فإنه قال لرجل : « **ياذا الأذنين** »(٥) ، وقال لآخر : « **إنا حاملوك على ولد الناقة** »(٦) ، وقال للعجوز : « إنه

(*) المراء : الجدل .

(**) المتقعر فى الكلام : الذى يختار غرائب اللغة وما لم يتكلم به الناس فيتكلم به .

(١) يقال : صَدَف عنه : أى أعرض عنه .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه [١٢/١] عن أبى هريرة ، والإمام أحمد فى المسند [١٩١/٢ ، ١٩٥ ، ٤٣١] .

(٣) عزاه صاحب كنز العمال [٨٠٨٥] لابن أبى الدنيا فى الصمت .

(٤) رواه الحاكم فى مستدركه [١٢/١] وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٥) أخرجه الترمذى فى البر رقم [١٩٩٣] ، وفى المناقب رقم [٣٨٣١] ، وأبو داود فى الأدب رقم [٥٠٠٢] ورواه الطبرانى من طريق أخرى عن أنس وسنده صحيح ولعله لذلك جزم الحافظ فى الإصابة بأن النبى ــ ﷺ ــ قاله .

(٦) رواه أبو داود بنحوه فى الأدب باب المزاح رقم [٤٩٩٨] من حديث أنس ، المسند [٢٦٧/٣] .

لا يدخل الجنة عجوز »[1] ثم قرأ : ﴿ **إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً** ﴾[2] . وقال لأخرى : « **زوجك الذى فى عينيه بياض ؟** »[3]. فقد اتفق فى مزاحه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ثلاثة أشياء : **أحدها** : كونه حقاً . **والثانى** : كونه مع النساء والصبيان ، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال . **والثالث** : كونه نادراً ، فلا ينبغى أن يحتج به من يريد الدوام عليه ، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم ، ولو أن إنساناً دار مع الحبشة ليلاً ونهاراً ينظر إلى لعبهم واحتج بأن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة ، لكان غالطاً ، لندور ذلك ، فالإفراط فى المزاح والمداومة عليه منهى عنه ، لأنه يسقط الوقار ، ويوجب الضغائن والأحقاد ، وأما اليسير كما تقدم ، من نحو نوع مزاح النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، فإن فيه انبساطاً وطيب نفس .

* ***الآفة السادسة*** : السخرية والاستهزاء ، ومعنى السخرية : الاحتقار والاستهانة ، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وكله ممنوع منه فى الشرع ، ورد النهى عنه فى الكتاب والسنة .

* ***الآفة السابعة*** : إفشاء السر ، وإخلاف الوعد ، والكذب فى القول واليمين ، وكل ذلك منهى عنه ، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته ، وفى الحرب ، فإن ذلك يباح . وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب ، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً ،وإن كان المقصود واجباً ، فهو واجب ، فينبغى أن يحترز عن الكذب مهما أمكن . وتباح المعاريض ، لقوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن فى المعاريض مندوحة عن الكذب** »[4]، وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها ، فأما مع غير الحاجة ، فمكروهة لأنها تشبه الكذب . فمن المعاريض ما روينا عن عبد الله بن رواحة ــ رضى الله عنه ــ أنه أصاب جارية له ، فعلمت أمرأته ، فأخذت شفرة ، ثم أتت فوافقته قد قام عنها ، فقالت : أفعلتها ؟ فقال : ما فعلت شيئاً ، قالت : لتقرأن القرآن أو لأبعجنك بها[5]، فقال ــ رضى الله عنه ــ:

---

(١) الحديث فى الشمائل الترمذية [٢٤٠] مرسلاً عن أنس قال العراقى : وأسنده ابن الجوزى فى الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) الواقعة: ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) قال العراقى فى تخريج إحياء علوم الدين [١٢٦/٣] : رواه الزبير بن بكار فى كتاب « الفكاهة والمزاح » عن زيد بن أسلم ، ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهرى مع اختلاف ، ولم يتكلم العراقى فى سند الحديث .

(٤) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن عمران بن حصين وفى كنز العمال [٨٢٤٩] عزاه لابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمران بن حصين .

(٥) طلبت منه أن يقرأ القرآن لأنها تعلم أن الجنب لا يقرأ القرآن ، وكانت لا تحفظ القرآن ، فأنشدها هذه الأبيات .

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع(*)

بيبت يُجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

أرانا الهدى(**) بعد العمى فقلوبنا به موقناتٌ أنّ ما قال واقع(1)

قالت : آمنت بالله وكذبت بصرى(2). وكان النخعى إذا طلب قال للجارية : قولى لهم : اطلبوه فى المسجد .

* ***الآفة الثامنة*** : الغيبة ، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهى عنها ، وشبه صاحبها بآكل الميتة . وفى الحديث : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام** » . وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته** »(3) . وفى حديث آخر : « **إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا ، إن الرجل قد يزنى ويشرب ، ثم يتوب ويتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه** »(4) . وقال على بن الحسين ــ رضى الله عنهما ــ إياك والغيبة ، فإنها إدام كلاب الناس . والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة . ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان نقصاً فى بدنه ، كالعمش ، والعور ، والحول ، والقرع ، والطول ، والقصر ، ونحو ذلك . أو فى نسبه ، كقولك : أبوه نبطى ، أو هندى ، أو فاسق ، أو خسيس ، ونحو ذلك . أو فى خلُقه كقولك ، هوسيىءالخلق بخيل متكبر ونحو ذلك . أو فى ثوبه ، كقولك : هو طويل الذيل ، واسع الكم ، وسخ الثياب . والدليل على ذلك ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ سئل عن الغيبة قال : « **ذكرك أخاك بما يكره** » . قال : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول

(*) فى كتاب « الأذكياء » لابن الجوزى ص ٤٠ : كما انشق مشهور من الصبح ساطع .

(**) فى السابق : أتى بالهدى . (1) فى السابق جعل البيت الثالث مكان الثانى ، والثانى مكان الثالث .

(2) للقصة المشار إليها رواية أخرى مماثلة ، ذكرها ابن عبد البر فى « الاستيعاب » وفيها أن عبد الله بن رواحة أنشد يقول :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد ملائكة الإله مُسَوَّمينا

(3) فى جمع الجوامع [٩٨٢/١] عزاه لأبى يعلى وابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة عن البراء بن عازب ، ولابن أبى الدنيا والطبرانى فى الكبير عن أبى برزة الأسلمى ، والحديث فى المسند [٤٢١/٤ ، ٤٢٤] .

(4) ذكره السيوطى فى جمع الجوامع [٣٦٣/١] وعزاه لابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة عن جابر وأبى سعيد الخدرى معاً . وهو حديث . ضعيف .

يارسول الله؟ قال: « **إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته** »[1] .

واعلم : أن كل مايفهم منه مقصود الذم ، فهو داخل فى الغيبة ، سواء كان بكلام أو بغيره ، كالغمز ، والإشارة والكتابة بالقلم ، فإن القلم أحد اللسانين . وأقبح أنواع الغيبة ، غيبة المتزهدين المرائين ، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقولون : نعوذ بالله من قلة الحياء ، أو نسأل الله العافية ، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم . وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان : ذاك المسكين قد بلى بآفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه ، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده .

واعلم : أن المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف ، فبقلبه وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، لزمه ذلك . وقد روى عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **من أذل عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره أذله الله ــ عز وجل ــ على رءوس الخلائق** »[2] . وقال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **من حمى مؤمناً من منافق يغتابه ، بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم** »[3] .

ورأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع فى آخر ، فقال له : ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه نفسك عن القول به ، فالمستمع شريك القائل ، إنما نظر إلى شر ما فى وعائه فأفرغه فى وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها . وقد وردت أحاديث فى حق المسلم على المسلم ، تقدمت فى كتاب الصحبة .

● فصل فى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التى تبعث على الغيبة فكثيرة .

* ***منها*** : تشفى الغيظ ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سبب يوجب غيظه ، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه .

* ***السبب الثانى*** : من البواعث على الغيبة : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم ، فإنهم إذاكانوا يتفكهون فى الأعراض ، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند [٢/٢٣٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٥٨] ورواه مسلم فى صحيحه كتاب « البر » رقم [٧٠] .

(٢) رواه الطبرانى من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة (ضعيف) ، قاله العراقى [٣/١٤٣] ، قلت : والحديث فى المسند للإمام أحمد [٣/٤٨٧] .

(٣) الحديث فى سنن أبى داود رقم [٤٨٨٣] بسند ضعيف وفى المسند [٣/٤٤١] ، وعزاه السيوطى لابن =

* **السبب الثالث** : إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول : فلان جاهل ، وفهمه ركيك ، ونحو ذلك ، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه . كذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم ، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

* **السبب الرابع** : اللعب والهزل ، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة ، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا . وأما علاج الغيبة ، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله ــ تعالى ــ ومقته ، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة . وينبغى إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر فى عيوب نفسه ، ويشتغل بإصلاحها ، ويستحى أن يعيب وهو معيب ، كما قال بعضهم :

فإن عبْتَ قوماً بالذى فيك مثله فكيف يعيب الناس من هو أعور
وإن عبْتَ قوماً بالذى ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر

وإن ظن أنه سليم من العيوب ، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه ، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة ، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له ، فينبغى أن لا يرضاها لغيره من نفسه . فلينظر فى السبب الباعث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه ، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها . وقد ذكرنا بعض أسبابها ، فيعالج الغضب بما سيأتى فى كتاب الغضب ، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله ــ تعالى ــ يغضب على من طلب رضى المخلوقين بسخطه ، بل ينبغى أن يغضب على رفقائه ، وعلى نحو هذا معالجه البواقى .

● فصل فى حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب ، وذلك سوء الظن بالمسلمين . والظن ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب ، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً ، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل ، فمال قلبك إلى تصديقه ، كنت معذوراً ، لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر ، فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر ، بل ينبغى أن تبحث ، هل بينهما عداوة وحسد ؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغبط الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة . وإذا تحققت هفوة مسلم ، فانصحه فى السر .

واعلم : أن من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وذلك منهى عنه ، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم ، ولو لم ينكشف لك ، كان قلبك أسلم للمسلم .

= أبى الدنيا فى ذم الغيبة والخرائطى فى مكارم الأخلاق عن أنس [جمع الجوامع ٧٧٤/١] .

● بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة و كفارة الغيبة

اعلم : أن المرخص فى ذكر مساوىء الغير ، وهو غرض صحيح فى الشرع ، لا يمكن التوصل إليه إلا به ، وذلك يدفع إثم الغيبة ، وهو أمور : **أحدها** : التظلم ، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفى حقه . **الثانى** : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح . **الثالث** : الاستفتاء ، مثل أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان ، أو أخذ حقى ، فكيف طريقى فى الخلاص ، فالتعيين مباح ، والأولى التعريض ، وهو أن يقول : ما تقول فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك ؟ والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت : إن أبا سفيان رجل شحيح و لم ينكر عليها النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ. **الأمر الرابع** : تحذير المسلمين ، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك ، فلك أن تكشف له الحال . وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق ، فتذكر ذلك للمشترى . وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقيعة ، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح . **الخامس** : أن يكون معروفاً بلقب ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يذكره به ، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى . **السادس** : أن يكون مجاهراً بالفسق ، ولا يستنكف أن يذكر به . وقد روى عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له** »[1] . وقيل للحسن : الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة ، قال : لا ، ولا كرامة . وأما كفارة الغيبة ، فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين :

إحداهما : على حق الله ــ تعالى ــ، إذ فعل ما نهاه عنه ، فكفارة ذلك التوبة والندم . **والجناية الثانية** : على محارم المخلوق ، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل ، جاء إليه واستحله ، وأظهر له الندم على فعله . وقد روى أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من مال أو عرض ، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه** »[2] . وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل ، جعل مكان استحلاله الاستغفار له ، لئلا يخبره بما لا يعلمه ، فيوغر صدره .

---

(١) الخرائطى فى مساوىء الأخلاق والبيهقى فى سننه وضعفه ، والخطيب فى تاريخه ، وابن عساكر ، وابن النجار عن أنس [جمع الجوامع ٧٥٦/١] . وعزاه العراقى لأبى الشيخ فى كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف [الإحياء ١٥٠/٣] . والحديث فى مسند الفردوس للديلمى رقم [٥٩٢٥] (٦١٦/٣) وسنده ضعيف .

(٢) رواه البخارى فى « الرقاق » باب « القصاص يوم القيامة » رقم [٦٥٣٤] والإمام أحمد فى مسنده [٤٣٥/٢ ، ٥٠٦] .

وقد ورد فى الحديث : « **كفارة من اغتيب أن يُستغفَرَ له** »[1] . وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير ، وكذلك إن كان قد مات .

• ***الآفة التاسعة — من آفات اللسان*** : النميمة ، وفى الحديث أن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « **لا يدخل الجنة قتات** » وهو النمام .

واعلم : أن النميمة تطلق فى الغالب على نقل قول إنسان فى إنسان ، مثل أن يقول : قال فيك فلان كذا وكذا ، وليست مخصوصة بهذا ، بل حدها كشف ما يكره كشفه ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال ، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره ، فهو نميمة . وكل من نقلت إليه النميمة ، مثل أن يقال له : قال فيك فلان كذا وكذا ، أو فعل فى حقك كذا ، ونحو ذلك ، فعليه ستة أشياء : **الأول** : أن لا يصدق الناقل ، لأن النمام فاسق مردود الشهادة . **الثانى** : أن ينهاه عن ذلك وينصحه . **الثالث** : أن يبغضه فى الله ، فإنه بغيض عند الله . **الرابع** : أن لا يظن بأخيه الغائب السوء . **الخامس** : أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث ، لقوله — تعالى —: ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا** ﴾[2] . **السادس** : لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه ، فلا يحكى نميمته .

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل : بلغنى أنك وقعت فىَّ ، وقلت كذا وكذا . فقال الرجل : ما فعلت ، فقال سليمان : أن الذى أخبرنى صادق ، فقال الرجل : لا يكون النمام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت ، اذهب بسلام . وقال يحيى بن أبى كثير : يفسد النمام فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى شهر . وقد حكى أن رجلاً ساوم بعبد ، فقال مولاه : إنى أبرأ إليك من النميمة والكذب ، فقال : نعم ، أنت برىء منهما ، فاشتراه . فجعل يقول لمولاه : إن امرأتك تبغى وتفعل ، وإنها تريد أن تقتلك ، ويقول للمرأة : أن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى ، فإن أردت أن أعطفه عليك ، فلا يتزوج ولا يتسرى ، فخذى الموسى واحلقى شعرة من حلقه إذا نام ، وقال للزوج : إنها تريد أن تقتلك إذا نمت . قال : فذهب فتناوم لها ، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه ، فأخذ بيدها فقتلها ، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه .

• ***الآفة العاشرة*** : كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر ، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه ، أو يعده أنه ينصره ، أو يثنى على الواحد فى وجهه

---

(١) ابن أبى الدنيا فى « ذم الغيبة » ، البيهقى فى « شعب الإيمان » وضعَّفهُ ، الخرائطى فى « مساوىء الأخلاق » ، الخطيب فى تاريخه عن أنس ، جمع الجوامع [٦٢٠/١] والحديث فى مساوىء الأخلاق للخرائطى برقم [٢١١] باب ما جاء فى كفارة الأغياب وسنده موضوع ، ورواه ابن أبى الدنيا فى « الصمت » ٢٩١ ، وذكره السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » [٣٠٣/٢] . (٢) الحجرات : ١٢ .

ويذمه عند الآخر . وفى الحديث : « **أن شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه** »[1] .

واعلم : أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك ، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز . قال أبو الدرداء ــ رضى الله عنه ــ إنا لنكشر[*] فى وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم[2] . ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له .

* ***الآفة الحادية عشرة*** : المدح ، وله آفات : منها : ما يتعلق بالمادح ، ومنها : ما يتعلق بالممدوح . فأما آفات المادح ، فقد يقول مالا يتحققه ، ولا سبيل للاطلاع عليه ، مثل أن يقول : إنه ورع وزاهد ، وقد يفرط فى المدح فينتهى إلى الكذب ، وقد يمدح من ينبغى أن يذم . وقد روى فى حديث : « **إن الله ــ تعالى ــ يغضب إذا مدح الفاسق** »[3] . وقال الحسن : من دعا لظالم بالبقاء ، فقد أحب أن يعصى الله . وأما الممدوح ، فإنه يحدث فيه كبراً أو إعجاباً ، وهما مهلكان ، ولهذا قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لما سمع رجلاً يمدح رجلاً : « **ويلك ، قطعت عنق صاحبك** » ... الحديث وهو مشهور[4] . وقد روينا عن الحسن قال : كان عمر ــ رضى الله عنه ــ قاعداً ومعه الدّرة والناس حوله ، إذا أقبل الجارود ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ــ رضى الله عنه ــ ومن حوله ، وسمعها الجَارود ، فلما دنا منه خفقه[5] بالدّرة ، فقال : مالى ولك ياأمير المؤمنين ؟ قال : مالى ولك ، أما سمعتها ؟ قال : سمعتها ، فمه ؟ قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطىء منك ولأن الإنسان إذا أثنى عليه بالخير رضى عن نفسه ، وظن أنه قد بلغ المقصود ، فيفتر عن العمل ، ولهذا قال : « **قطعت عنق صاحبك** ... » .

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس ، فقد أثنى النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ على أبى بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ وغيرهما من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ . وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل ،

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « الأدب » ، باب « ما قيل فى ذى الوجهين » رقم [٦٠٥٨] وأحمد فى مسنده [٢٤٥/٢ ، ٣٠٧ ، ٣٣٦] والترمذى فى « البر والصلة » باب « ما جاء فى ذى الوجهين » [١٨١/٨] .

*) الكَشر : ظهور الأسنان . أكثر ما يطلق عند الضحك .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب « الأدب » باب « المداراة مع الناس » . شرحه فى فتح البارى [٥٤٥/١٠ ــ ٥٤٦] .

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى « الصمت » والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أنس ، وفيه أبو خلف خادم أنس (ضعيف) ، ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى بلفظ : « إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش » قال الذهبى فى الميزان : منكر [تخريج العراقى ــ ١٥٦/٣] .

(٤) رواه البخارى فى « الأدب » باب « ما يكره من التمادح » رقم [٦٠٦١] رواه مسلم فى « الزهد » رقم [٦٥ ، ٦٦] ، الإمام أحمد فى مسنده [٤١/٥ ، ٤٦ ، ٥١] . (٥) خفقه : ضربه .

ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه ، ويتفكر فى أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه . وقد روى أن رجلاً من الصالحين أثنى عليه ، فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى .

• **الآفة الثانية عشرة** : الخطأ فى فحوى الكلام فيما يرتبط فى أمور الدين ، لا سيما فيما يتعلق بالله ــ تعالى ــ ، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة ، لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن يعفو الله عنه لجهله . مثال ذلك ما روى عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **لا يقل أحدكم : ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل ، ما شاء الله ثم شئت** »[1] ، وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكاً وتسوية ، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله : « ومن يعصهما فقد غوى » وقال : « **قل : ومن يعص الله ورسوله** »[*] .

وقال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل ، غلامى وجاريتى** »[2] . وقال النخعى : إذا قال الرجل للرجل : ياحمار ، ياخنزير ، قيل له يوم القيامة : أرأيتنى خلقته حماراً ؟ ، أو أرأيتنى خلقته خنزيراً ؟ فهذا وأمثاله ما يدخل فى الكلام ، ولا يمكن حصره ، ومن تأمل ما أوردناه فى آفات اللسان ، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **من صمت نجا** »[3] ، لأن هذه الآفات مهالك وهى على طريق المتكلم ، فإن سكت سلم .

● فصل لا تسأل عن صفات الله ـ عز وجل ـ

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله ــ سبحانه وتعالى ــ وكلامه . **اعلم** : أن الشيطان يخيل إلى العامى أنك بخوضك فى العلم تكون من العلماء وأهل الفضل ، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدرى . قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **يوشك الناس أن يسألوا ، حتى يقولوا : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟** »[4] فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات ، وبحثهم عن معانى الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم ، إذ الواجب عليهم التسليم ، فالأولى بالعامى الإيمان بما ورد به القرآن ،

(١) أخرجه ابن ماجه فى « الكفارات » باب « النهى عن أن يقال ما شاء الله وشئت » رقم [٢١١٧] .
(*) أخرجه مسلم فى كتاب « الجمعة » رقم [٤٨] عن عدى بن حاتم ، المسند [٢٥٦/٤] .
(٢) البخارى كتاب « العتق » باب « كراهية التطاول على الرقيق » رقم [٢٥٥٢] ، ومسلم فى « الألفاظ » رقم [١٣ ، ١٥] ، الإمام أحمد فى المسند [٣١٦/٢ ، ٤٢٣ ، ٤٦٣] .
(٣) أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو فى « القيامة » باب [٥٠] [٣٠٩/٩] بسند ضعيف وقال غريب ، وفيه عبد الله بن لهيعة ضعيف . وهو عند الطبرانى بسند جيد والحديث فى مسند الإمام أحمد [١٥٩/٢ ، ١٧٧] .
(٤) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة .

ثم التسليم لما جاء به الرسول من غير بحث ، واشتغالهم بالعبادات ، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم ، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك .

● كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

اعلم : أن الغضب شعلة من النار ، وأن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين ، حيث قال : ﴿ **خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾[1] شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاشتعال ، والحركة والاضطراب . ومن نتائج الغضب : الحقد والحسد ، ومما يدل على ذم الغضب قول النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ للرجل الذى قال له : أوصنى ، قال : « **لا تغضب** » ، فردد عليه مراراً ، قال : « **لا تغضب** »[2] . وفى حديث آخر أن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ سأل النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، ماذا يبعدنى من غضب الله ـ عز وجل ـ ؟ قال : « **لا تغضب** » .

وفى المتفق عليه من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: « **ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب** »[3] . وعن عكرمة فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَسَيِّداً وَحَصُوراً** ﴾[4] قال : السيد الذى يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه . وروينا أن ذا القرنين لقى ملكاً من الملائكة فقال : علمنى علماً أزداد به إيماناً ويقيناً ، قال : لا تغضب ، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة ، وإياك والعجلة ، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً . وروينا أن إبليس لعنه الله بدا لموسى ـ عليه السلام ـ، فقال ياموسى : إياك والحدّة ، فإنى ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة ، وإياك والنساء ، فإنى لم أنصب فخاً قط أثبت فى نفسى من فخ أنصبه بامرأة ، وإياك والشح ، فإنى أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة .

وكان يقال : اتقوا الغضب ، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل ، والغضب عدو العقل . وحقيقة الغضب : غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلى به دم القلب ، وينتشر فى العروق ، ويرتفع إلى أعالى البدن كما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر ، ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة ، وكل ذلك يحكى لون ما وراءه من حمرة الدم ، كما تحكى الزجاجة لون ما فيها ، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على

---

(١) الأعراف :: ١٢ ، وسورة ص : ٧٦ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الأدب » باب « الحذر من الغضب » رقم [٦١١٦] ، والإمام أحمد فى المسند [١٧٥/٢ ، ٣٦٢ ، ٤٦٦] ، [٤٨٤/٣] ـ [٣٤/٥] .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الأدب » باب « الحذر من الغضب » رقم [٦١١٤] ، مسلم فى « البر » [١٠٦ ـ ١٠٨] ، المسند [٣٨٢/١] ، [٢٣٦/٢ ، ٢٦٨ ، ٥١٧] .

(٤) آل عمران : ٣٩ .

من دونه واستشعر القدرة عليه . فإن كان الغضب صدر ممن فوقه ، وكان معه يأس من الانتقام ، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، فصار حزناً ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب من نظير يشك فيه ، تردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر ويضطرب ، فالانتقام هو قوت لقوة الغضب . والناس فى قوة الغضب على درجات ثلاث : إفراط ، وتفريط ، واعتدال . فلا يحمد الإفراط فيها ، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما ، فلا يبقى للإنسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار . والتفريط فى هذه القوة أيضاً مذموم ، لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة ، ومن فقد الغضب بالكلية ، عجز عن رياضة نفسه ، إذ الرياضة إنما تتم بتسلط الغضب على الشهوة ، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة ، ففقد الغضب مذموم ، فينبغى أن يطلب الوسط بين الطريقين .

واعلم : أنه متى قويت نار الغضب والتهبت ، أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ ، فيغطى على معادن الفكر ، وربما تعدى إلى معادن الحس ، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتسود الدنيا فى وجهه ، ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار ، فاسود جوه ، وحمى مستقره ، وامتلأ بالدخان ، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ ، فلا يثبت فيه قدم ، ولا تسمع فيه كلمة ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفاء النار ، فكذلك يفعل بالقلب والدماغ ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه . ومن آثار الغضب فى الظاهر ، تغير اللون ، وشدة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب ، واستحالة الخلقة ، وتعاطى فعل المجانين ، ولو رأى الغضبان صورته فى حال غضبه وقبحها لأنف لنفسه من تلك الحال ، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم .

● فصل فى بيان الأسباب المهيجة للغضب وذكر علاج الغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها . **فمن أسبابه** : العجب ، والمزاح ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ، فينبغى أن يقابل كل واحد من هذه بما يضادّه ، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه . وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور :

أحدها : أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى فضل كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال ، كما جاء فى البخارى من حديث ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ، أن رجلاً استأذن على عمر ــ رضى الله عنه ــ، فأذن له ، فقال له : يا ابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر ــ رضى الله عنه ــ، حتى هم أن يُوقعَ به . فقال الحر بن قيس : ياأمير المؤمنين إن الله ــ عز وجل ــ قال لنبيه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: ﴿ **خُذِ العَفْوَ وأْمُر بالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنَ الجَاهِلِينَ** ﴾[1] وإن هذا من الجاهلين ،

(١) الأعراف : ١٩٩ .

فوالله ما جاوزها عمر ــ رضى الله عنه ــ حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله ــ عز وجل ــ.

الثانى : أن يخوف نفسه عقاب الله ــ تعالى ــ، وهو أن يقول : قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت فيه غضبى ، لم امن أن يمضى الله ــ عز وجل ــ غضبه علىَّ يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو . وقد قال الله ــ تعالى ــ فى بعض الكتب : يـٰابن آدم ! اذكرنى عند الغضب ، أذكرك حين أغضب ، ولا أمحقك فيمن أمحق .

والثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو فى هدم أعراضه ، والشماتة بمصائبه ، فإن الإنسان لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه ذلك فى الدنيا إن لم يخف من الآخرة ، وهذا هو تسليط شهوة على غضب ، ولا ثواب عليه ، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الآخرة ، فيثاب على ذلك .

الرابع : أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب على ما تقدم ، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضارى ، والسبع العادى ، وأنه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء فى عاداتهم ، تميل نفسه إلى الاقتداء بهم .

الخامس : أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان : إن هذا يحمل منك على العجز ، والذلة والمهانة ، وصغر النفس، وتصير حقيراً فى أعين الناس ، فليقل لنفسه : تأنفين من الاحتمال الآن ، ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك ، وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله ــ تعالى ــ وعند الملائكة والنبيين .

وينبغى أن يكظم غيظه ، فذلك يعظمه عند الله ــ تعالى ــ، فماله وللناس ؟ أفلا يحب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودى : ليقم من وقع أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ، فهذا وأمثاله ينبغى أن يقرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه إنما كان من شىء جرى على وفق مراد الله ــ تعالى ــ، لا على وفق مراده ، فكيف يقدم مراده على مراد الله ــ تعالى ــ، هذا ما يتعلق بالقلب . وأما العمل ، فينبغى له السكون ، والتعوذ ، وتغيير الحال ، وإن كان قائماً جلس ، وإن كان جالساً اضطجع ، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب ، فهذه الأمور وردت فى الأحاديث . أما الحكمة فى الوضوء عند الغضب ، فقد بينها فى الحديث . كما روى أبو وائل قال : كنا عند عروة بن محمد ، فكلمه رجل بكلام ، فغضب غضباً شديداً ، فقام وتوضأ ، ثم جاء فقال : حدثنى أبى عن جدى عطية ــ وكانت له صحبة ــ قال: قال رسول الله ــ صلى

الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ** »[1] .

وأما الجلوس والاضطجاع ، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التى منها خلق ، فيذكر أصله فيذل ، ويمكن أن يكون ليتواضع بذله ، لأن الغضب ينشأ من الكبر ، بدليل ما روى أبو سعيد ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه ذكر الغضب وقال : « **من وجد شيئاً من ذلك ، فليلصق خده بالأرض** » . وقيل : غضب المهدى على رجل ، فدعا بالسياط فلما رأى شبيب شدة غضبه ، وإطراق الناس ، فلم يتكلموا بشىء ، قال : ياأمير المؤمنين ، لا تغضبن لله بأشد مما غضب لنفسه ، فقال : خلوا سبيله .

● فصل فى كظم الغيظ

قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَالكَاظِمينَ الغَيْظَ** ﴾[*] فذكر ذلك فى معرض المدح وعن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء** »[2] . وروى عن عمر ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون .

● فصل فى الحلم

روى أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم** »[3] . « **اطلبو العلم ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ، لينوا لمن تُعَلِّمون ولمن تعلمون منه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فيغلبَ جهلكم عليكم** »[4] . وقال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لأشج بن قيس : « **إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة** » . وشتم رجل ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ، فلما قضى مقالته ، فقال : ياعكرمة ، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى . وأسمع رجل معاوية كلاماً شديداً ، فقيل له : لو عاقبته ؟ فقال : إنى لأستحى أن يضيق حلمى عن ذنب أحد من رعيتى . وقسم معاوية نطعاً ، فبعث منها

---

(١) رواه أبو داود فى « الأدب » باب « ما يقال عند الغضب رقم [٤٧٨٤] والإمام أحمد فى المسند [٢٢٦/٤] ، وهو حديث ضعيف (ضعيف الجامع ١٢٦٨] . (*) آل عمران : ١٣٤ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب باب من كظم غيظا رقم [٤٧٧٧] والترمذى فى البر باب فى كظم الغيظ وقال : هذا حديث حسن غريب [٨/ ١٧٨] .

(٣) رواه الطبرانى والدارقطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف [قاله العراقى ١٧٢/٣] .

(٤) رواه الديلمى فى مسند الفردوس رقم ٢٣٨ . قال العراقى : رواه ابن السنى فى رياضة المتعلمين بسند ضعيف [١٧٢/٣] .

إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه ، فجعل عليه يميناً أن يضرب رأس معاوية ، فأتى معاوية فأخبره ، فقال له معاوية : أوف بنذرك وارفق بالشيخ . وجاء غلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة له ، فقال له : من كسر رجل هذه ؟ قال : أنا فعلته عمداً لأغيظك ، فتضربنى ، فتأثم . فقال : لأغيظن من حرضك على غيظى ، فأعتقه .

وشتم رجل عدى بن حاتم وهو ساكت ، فلما فرغ من مقالته قال : إن كان بقى عندك شىء فقل قبل أن يأتى شباب الحى ، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا . ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة فى الظلمة ، فمر برجل نائم فعثر به ، فرفع رأسه وقال : أمجنون أنت ؟ فقال عمر : لا ، فهم به الحرس ، فقال عمر : مه ، إنما سألنى أمجنون ؟ فقلت : لا . ولقى رجل على بن الحسين ــ رضى الله عنهما ــ، فسبه ، فثارت إليه العبيد ، فقال : مهلاً ، ثم أقبل على الرجل فقال : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحى الرجل ، فألقى عليه خميصة(*) كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنك من أولاد الرسول . وقال رجل لوهب بن منبه : إن فلاناً شتمك ، فقال : ما وجد الشيطان بريداً غيرك .

● فصل فى العفو والرفق

اعلم : أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتسقطه ، وتؤدى عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم والكظم . وقال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾(١) وقال : ﴿ **فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ** ﴾(٢) ، وفى الحديث أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، قال : « **ما نقصت صدقة من مال ، ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله** »(٣) . وعن عقبة بن عامر ، قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ياعقبة ، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك** »(٤) . وروى أن منادياً ينادى يوم القيامة : ليقم من وقع أجره على الله ؟ فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه . وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف** »(٥) . وفى « الصحيحين » من حديث عائشة ــ رضى

(*) الخميصة : ثوب أسود أو أحمر له أعلام . (١) آل عمران : ١٣٤ . (٢) الشورى : ٤٠

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب « البر » رقم [٦٩] ، الإمام أحمد فى مسنده [٢/٢٣٥ ، ٣٨٦ ، ٤٣٨] ، الترمذى فى « البر والصلة » باب « ما جاء فى التواضع » ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . (٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك [٤/١٦٢] .

(٥) المسند [١/١١٢] ــ [٤/٨٧] ــ [٦/٣٧] ورواه أبو داود فى « الأدب » باب « فى الرفق » رقم [٤٨٠٧] .

الله عنها ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إن الله ــ عز وجل ــ يحب الرفق فى الأمر كله** »[1]. وفى حديث آخر « **من يحرم الرفق يحرم الخير** »[2].

● باب فى الحقد والحسد

اعلم : أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن ، فاحتقن فيه فصار حقداً . وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه ، فالحقد ثمرة الغضب ، والحسد من نتائج الحقد . وعن الزبير بن العوام ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء** »[3] . وفى « الصحيحين » عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **لا تباغضوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، كونوا عباد الله إخواناً** »[4] . وفى حديث آخر عنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب** »[5]

وفى حديث آخر أنه قال : « **يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل ، فسئل عن عمله ، فقال : إنى لا أجد لأحد من المسلمين فى نفسى غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه** »[6]. وروينا أن الله ــ تبارك وتعالى ــ يقول : « **الحاسد عدو نعمتى ، متسخط لقضائى ، غير راض بقسمتى بين عبادى** » . وقال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شىء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على شىء من أمر الدنيا ، وهو يصير إلى الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على شىء من أمر الدنيا ، وهو يصير إلى النار . وقال إبليس لنوح ــ عليه السلام ــ: إياك والحسد ، فإنه صيرنى إلى هذه الحال .

واعلم : أن الله ــ تعالى ــ إذا أنعم على أخيك نعمة ، فلك فيها حالتان : **إحداهما** : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، فهذا هو الحسد . **والحالة الثانية** : أن لا تكره وجودها

---

(١) البخارى فى « الأدب » باب « الرفق فى الأمر كله » رقم [٦٠٢٤] ، ومسلم فى « البر » رقم [٤٧] ، وفى « السلام » رقم [١٠] . (٢) مسلم فى « البر » رقم [٧٨] ، المسند [٥٨/٦ ، ١١٢

(٣) رواه الترمذى فى « القيامة » باب [٥٦] [٣١٥/٩] وقال : هذا الحديث اختلفوا فى روايته عن يحيى ابن أبى كثير ، ورواه الإمام أحمد فى المسند [١٦٥/١ ، ١٦٧] .

(٤) صحيح مسلم كتاب « البر » رقم [٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢] . والبخارى فى « الأدب » باب « ما ينهى عن التحاسد والتدابر » رقم [٦٠٦٤ ، ٦٠٦٥] ، المسند [٣/١ ، ٥ ، ٧] ــ [٢٧٧/٢ ، ٢٨٨] .

(٥) رواه ابن ماجه فى « الزهد » باب « الحسد » رقم [٤٢١٠] وهو ضعيف ، وأبو داود « فى الأدب » [٤٩٠٢] .

(٦) رواه الإمام أحمد عن أنس [١٦٩/١ ، ١٨٣/١] وإسناده صحيح على شرط الشيخين ، ورواه البزار فى رواية له وسمى الرجل سعدًا ، إلا أن رواية البزار ضعيفة ، لأن فيها ابن لهيعة .

ولا تحب زوالها ، ولكنك تشتهى لنفسك مثلها ، فهذا يسمى غبطة . قال المصنف ــ رحمه الله ــ: قلت : واعلم أنى ما رأيت أحداً حقق الكلام فى هذا كما ينبغى ، ولابد لى من كشفه فأقول :

اعلم : أن النفس قد جبلت على حب الرفعة ، فهى لا تحب أن يعلوها جنسها ، فإذا علا عليها ، شق عليها وكرهته ، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوى ، وهذا أمر مركوز فى الطباع . وقد روى أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن ، والطِّيرة ، والحسد ، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك ، إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ** »[1] .

وعلاج الحسد ، تارة بالرضى بالقضاء ، وتارة بالزهد فى الدنيا ، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة ، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما فى النفس أصلاً ، ولا ينطق ، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع فى جبلته .

فأما من يحسد نبياً على نبوته ، فيجب أن لا يكون نبياً ، أو عالماً على علمه ، فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه ، فهذا لا عذر له ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة ، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه ، ويطلع على ما لم يدركوه ، فإنه لا يأثم بذلك ، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم ، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه ، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما ، فأحب أحدهما أن يستبق . وقد قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾[2] . وفى « الصحيحين » من حديث ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله ــ عز وجل ــ القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ، فهو ينفقه فى الحق آناء الليل وآناء النهار** »[3] .

◉ *أسباب الحسد :*

والحسد له أسباب ــ أحدها : العداوة ، والتكبر ، والعجب ، وحب الرياسة ، وخبث النفس ، وبخلها ، وأشدها : العداوة والبغضاء ، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب ، وخالفه فى غرضه ، أبغضه قلبه ، ورسخ فى نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك ، وظنه مكافأة من الله ــ تعالى ــ له ، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك ، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقى أن

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف [قاله العراقى ١٤٨/٣] ؛ وأخرجه الحافظ ابن أبى الدنيا فى « ذم الحسد » عن أبى هريرة بسند ضعيف . (٢) المطففين : ٢٦ .

(٣) صحيح البخارى كتاب « التوحيد » باب [٤٥] رقم [٧٥٢٨] وفى مواضع أخرى من صحيحه ، ورواه أحمد فى المسند [٩/٢ ، ٢٦] .

لا يبغى ، وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً فيستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن . وأما الكبر ، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية ، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره ، وأن يكون من أصاب ذلك دونه ، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته . وكان حسد الكفار لرسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قريباً من ذلك . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآن عَلَىٰ رَجُلٍ منَ الْقَرْيَتَين عَظِيمٍ ﴾[1] وقال فى حق المؤمنين : ﴿ أَهَؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنِنَا ﴾[2]. وقال فى آية أخرى : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾[3] . وقال : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُم إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾[4] فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم .

وأما حب الرياسة والجاه ، فمثاله أن الرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستفزه الفرح بما يمدح به ، من أنه أوحد العصر ، وفريد الدهر فى فنه ، إذا سمع بنظير له فى أقصى العالم ، ساءه ذلك وأحب موته ، أو زوال النعمة التى بها يشاركه فى علم ، أو شجاعة ، أو عبادة ، أو صناعة ، أو ثروة ، أو غير ذلك ، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم . وأما خبث النفس وشحها على عباد الله ، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر ، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله ــ تعالى ــ فيما أنعم عليه به ، شق عليه ذلك ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم ، وتنغيص عيشهم ، فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته . وقد قال بعض العلماء : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح الذى يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة ، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع ،وهذا معالجته شديدة ، لأنه ليس له سبب عارض ، فيعمل على إزالته ، بل سببه خبث الجبلة ، فيعسر إزالته ، فهذه أسباب الحسد .

● فصل فى سبب كثرة الحسد

واعلم : أنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ، ويقع ذلك غالباً بين الأقران ، والأمثال ، والإخوة ، وبنى العم ، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها ، فيثور التنافر والتباغض . ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، والإسكافى يحسد الإسكافى ،

---

(١) الزخرف : ٣١ . (٢) الأنعام : ٥٣ . (٣) يس : ١٥ . (٤) المؤمنون : ٣٤ .

ولا يحسد البزاز إلا أن يكون سببا آخر ، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر . فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين ، إذ لا رابطة بين شخصين فى بلدين ، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه ، فإنه يحسد كل من فى العالم ممن يساهمه فى الخصلة التى يفاخر بها .

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين ، وأما الآخرة ، فلا ضيق فيها ، فإن من أحب معرفة الله ــ تعالى ــ ، وملائكته ، وأنبيائه ، وملكوت أرضه وسمائه ، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين ، بل المعلوم الواحد يعرف ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته غيره ، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه ، وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ، ولا ضيق فيما عند الله ، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه ، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة . ولا يضيق بعض الناظرين على بعض ، بل يزيد الأنس بكثرتهم ، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا . والفرق بين العلم والمال ، أن المال لا يحل فى يد ما لم يرتحل عن يد أخرى ، والعلم مستقر فى قلب العالم ، ويحل فى قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه ، ولا نهاية له ، فمن عوَّد نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته وملكه ، صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم ، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه ، فلا يكون فى قلبه حسد لأحد من الخلق ، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته ، فقد عرفت أنه لا حسد إلا فى المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل .

ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء ، لأنها واسعة الأقطار ، وافية بجميع الأبصار ، فعليك إن كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه ، ولذة لا تتكدر ، ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلا فى معرفة الله ــ تعالى ــ وعجائب ملكوته ، ولا ينال ذلك فى المعرفة أيضاً ، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله ــ سبحانه ــ ، ولم تجد لذتها ، وضعفت فيها رغبتك ، فلست برجل ، إنما هذا شأن الرجال ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى من المحرومين .

واعلم : أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل ، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك فى الدين والدنيا ، وأنه لا يضر المحسود فى الدين ولا فى الدنيا ، بل ينتفع به ، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك ، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد ، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع ، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب فى الآخرة . وبيان قولنا : أن المحسود لا ضرر عليه فى الدين ولا فى الدنيا ، بل ينتفع بحسدك

فى الدين والدنيا ، لأن ما قدره الله له من نعمة لابد أن تدوم إلى أجله الذى قدره ، ولا ضرر عليه فى الآخرة ، لأنه لا يأثم هو بذلك ، بل ينتفع به ، لأنه مظلوم من جهتك . لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل . وأما منفعته فى الدنيا ، فهو أن من أهم أغراض الخلق غم الأعداء ، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد .

فإذا تأملت ما ذكرنا ، علمت أنك عدو لنفسك ، وهو صديق لعدوك ، فما مثلك إلا كمثل من يرمى حجراً عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه ، ويرجع الحجر على حدقته اليمنى فيقلعها ، فيزيد غضبه ، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول ، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها ، فيزداد غيظه ، فيرميه الثالثة ، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه ، وعدوه سالم يضحك منه ، فهذه الأدوية العلمية ، فإذا تفكر الإنسان فيها ، أخمدت نار الحسد من قلبه . وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد ، فإذا بعثه على الحقد والقدح فى المحسود ، كلف نفسه المدح له ، والثناء عليه ، وإن حمله الكبر ، ألزم نفسه التواضع له ، وإن بعثه على كف الإنعام عنه ، ألزم نفسه زيادة فى الإنعام(*) . وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم ، أهدوا إليه هدية فهذه أدوية نافعة للحسد جداً ، إلا أنها مرة ، ربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد ، فأرِد ما يكون ، وهذا هو الدواء الكلى ، والله أعلم .

● باب فى ذم الدنيا

الآيات الواردة فى القرآن العزيز بعيب الدنيا ، والتزهيد فيها ، وضرب الأمثال لها كثيرة ، كقوله ــ تعالى ــ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقْنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفضَّة والخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأنعَام والحَرْثِ ذَلك مَتَاعُ الحَيَاة الدُّنْيَا وَاللهُ عندَهُ حُسْنُ المَآب ۞ قُل أؤنبئكُم بِخَيْرٍ من ذَلِكُمْ ﴾ الآية(١) ، وقوله : ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدنيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾(٣) الآية . وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾(٤) . وقوله : ﴿ وإنَّ كُلُّ ذَلك لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عند رَبِّك للمُتَّقِينَ ﴾(٥) ، وقوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن من تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدنيَا ۞ ذَلك مَبْلَغُهُم منَ العِلْمِ ﴾(٦) .

وأما الأحاديث ، ففى « الصحيحين » من رواية المسور بن شداد ، قال : قال رسول

(*) للمزيد عن أصل الحسد ومعناه وأسبابه وأنواعه ودليل الكتاب والسنة وقول العلم والعلماء فيه ، وكيفية علاج المحسود بالطريقة الشرعية انظر كتاب « حسد الحاسدين بين العلم والدين ، حقيقة الحسد وعلاج المحسود » ، لمجدى محمد الشهاوى ، مكتبة القرآن ١٩٨٨ م .

(١) آل عمران : ١٤ ، ١٥ . (٢) آل عمران : ١٨٥ . (٣) يونس : ٢٤ . (٤) الحديد : ٢٠ . (٥) الزخرف : ٣٥ . (٦) النجم : ٢٩ ، ٣٠

الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ، فلينظر بم ترجع ؟** »[1] . وفى حديث آخر : « **الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر** » رواه مسلم[2] . وفى حديث آخر : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء** » . رواه الترمذى وصححه[3] . وفى حديث آخر : « **الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها** »[4].

وروى أبو موسى ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **من أحب دنياه ، أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى** »[5] . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز فى ذم الدنيا كتابا طويلاً فيه : أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة ، فاحذرها ياأمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة ، وكن أسرَّ ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها ، سرورها مشوب بالحزن ، وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله ــ عز وجل ــ عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عند الله ــ سبحانه ــ قدر ولا وزن ، وما نظر إليها منذ خلقها .

ولقد عرضت على نبينا محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ مفاتيحها وخزائنها ، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، وكره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، زواها الله عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً ، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؟ ونسى ما صنع الله بمحمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ حين شد على بطنه الحجر ، والله ما أحد من الناس بسط له فى الدنيا ، فلم يخف أن يكون قد مكر به ، إلا كان قد نقص عقله ، وعجز رأيه ، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها ، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه . وقال مالك بن دينار اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء ــ يعنى الدنيا ــ ومن أمثلة الدنيا : قال يونس بن عبيد ، شبهت الدنيا كرجل نائم ، فرأى فى منامه ما يكرهه وما يحب ، فبينما هو كذلك انتبه . ومثل هذا قولهم : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس فى أيديهم شىء

(١) رواه مسلم فى «الجنة» رقم [٥٥]، الإمام أحمد فى المسند [٢٢٩/٤، ٢٣٠].
(٢) رواه مسلم فى صحيحه كتاب «الزهد» رقم [١] ، الإمام أحمد فى المسند [١٩٧/٢، ٣٢٣، ٣٨٩، ٤٨٥].
(٣) رواه الترمذى فى « الزهد » عن أبى هريرة باب ما جاء فى هوان الدنيا ، وقال : هذا حديث صحيح غريب .
(٤) رواه الترمذى وحسنه [٢٣٢٣] وابن ماجه [٤١١٢] من حديث أبى هريرة .
(٥) رواه الحاكم فى المستدرك [٣١٩/٤] عن أبى موسى الأشعرى وقال هذا حديث صحيح ، ووافقه الذهبى .

مما ركنوا إليه وفرحوا به . قيل : إن عيسى ــ عليه السلام ــ رأى الدنيا فى صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة . فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا أحصيهم . قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت ، فقال عيسى ــ عليه السلام ــ: بؤساً لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضيين ، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر .

وروى عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء(*) زرقاء أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق ، فيقال : هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال : هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها ، وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم تقذف فى جهنم ، فتنادى : يارب أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وعن أبى العلاء ، قال : رأيت فى النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة ، والناس عكوف عليها متعجبون ، ينظرون إليها ، فقلت : من أنت ويلك ؟ قالت : أما تعرفنى ؟ قلت : لا ، قالت : أنا الدنيا ، فقلت : أعوذ بالله من شرك . قالت : إن أحببت أن تعاذ من شرى فأبغض الدرهم .

وقال بعضهم : رأيت الدنيا فى النوم عجوزاً مشوهة الخلقة حدباء . مثال آخر : واعلم أن أحوالك ثلاث : حال لم تكن فيها شيئاً ، وهى قبل أن توجد . وحال أخرى ، وهى من ساعة موتك إلى ما لا نهاية له فى البقاء السرمدى ، فإن لنفسك وجوداً بعد خروجها من بدنك ، إما فى الجنة أو النار ، وهو الخلود الدائم . وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة ، وهى أيام حياتك فى الدنيا ، فانظر إلى مقدار ذلك ، وانسبه إلى الحالتين ، تعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار عمر الدنيا . ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها فى ضرر وضيق ، أوسعة ورفاهية ، ولهذا لم يضع رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . وقال : « **ما لى وللدنيا ؟ إنما مثلى، ومثل الدنيا كراكب ، قال(١) تحت شجرة ، ثم راح وتركها** »(٢) .

وقال عيسى ــ عليه السلام ــ: الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها . هذا مثل واضح ، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة ، واللحد هو الركن الثانى على آخر القنطرة . ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومن الناس من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها ، وكيفما كان فلا بد من العبور ، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها ، فهو فى غاية الجهل والحمق . وقيل : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً

(*) **الشمط** : بياض شعر الرأس يخالط سواده . (١) أى نام تحت ظلها ظهرًا . (٢) المسند (١/٤٤١).

حتى يقتله . وكان بعض السلف يقول لأصحابه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول : انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

مثال آخر : روى عن الحسن قال : بلغنى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقى ، أنفدوا الزاد وخسروا الظهر ، وبقوا بين ظهرانى المفازة ، لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه ، فقالوا : إن هذا قريب عهد بريف ، وما جاء هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : ياهؤلاء ، علام أنتم ؟ قالوا :على ما ترى . قال : أرأيتكم إن هديتكم إلى ماء رواءٍ ، ورياضٍ خضرٍ ما تعملون ؟ قالوا : لا نعصيك شيئاً قال : عهودكم ومواثيقكم بالله . قال : فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً . قال : فأوردهم ماءً ورياضاً خضراً ، فمكث فيهم ما شاء الله ، ثم قال : ياهؤلاء ، الرحيل : قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم ، وإلى رياضٍ ليست كرياضكم ، فقال أكثر القوم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة قليلة : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه ؟ وقد صدقكم فى أول حديثه ، فوالله ليصدقنكم فى آخره . قال : فراح فيمن اتبعه ، وتخلف بقيتهم ، فنزل عدو ، فأصبحوا بين أسير وقتيل**[1] .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : ياقوم ، إنى رأيت الجيش بعينى ، وأنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا ، وكذبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم . فصبَّحهم الجيش فى مكانهم ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من حق** »[2] .

فصل فى بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً ، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التى خلقت للمنافع ، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب . وقد وضع الله فى الطباع

---

(١) ذكره السيوطى فى جمع الجوامع [٢٩٣/١ ــ ٢٩٤] . وعزاه للرامهرمزى فى الأمثال وابن عساكر فى تاريخه عن ابن المبارك قال : بلغنا عن الحسن (فذكره) ، ثم قال الحافظ ابن عساكر : وهذا حديث مرسل وفيه انقطاع بين ابن المبارك والحسن ا .هـ وعزاه العراقى لابن أبى الدنيا بطوله ، ثم قال : ولأحمد والبزار والطبرانى نحوه مختصراً عنه بسند حسن .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الرقاق » باب « الانتهاء عن المعاصى » رقم [٦٤٨٢] عن أبى موسى ، =

توقان النفس إلى ما يصلحها ، فكلما تاقت منعوها ، ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد ، وجهلاً بحقوق النفس ، وعلى هذا أكثر المتزهدين ، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم ، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول :

اعلم : أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان ، فيها حظ ، وهى الأرض وما عليها ، فإن الأرض مسكن الآدمى ،وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله ــ عز وجل ــ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح ، كما لا تبقى الناقة فى طريق الحج إلا بما يصلحها ، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح ، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع فى الذم ، فإنه ليس للشره فى تناول الدنيا وجه ، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى ، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود ، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة ، ويرد لها الماء ، ويغير عليها ألوان الثياب ، وينسى أن الرفقة قد سارت ، فإنه يبقى فى البادية فريسة للسباع هو وناقته .

ولاوجه أيضاً للتقصير فى تناول الحاجة ، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها ، فالطريق السليم هى الوسطى ، وهى أن يؤخذ من الدنيا قدرما يحتاج إليه من الزاد للسلوك ، وإن كان مشتهى ، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها . وقد كان سفيان الثورى يأكل فى أوقات من طيب الطعام ، ويحمل معه فى السفر الفالوذج . وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات فى بعض الأوقات ، ويقول : إذا وجَدْنا أكَلْنا أكْلَ الرجال ، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال . ولينظر فى سيرة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وصحابته ، فإنهم ما كان لهم إفراط فى تناول الدنيا ، ولا تفريط فى حقوق النفس . وينبغى أن يتلمح حظ النفس فى المشتهى ، فإن كان فى حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير ، فلا يمنعها منه ، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم ، والزهد فيه يكون .

● باب فى ذم البخل والحرص والطمع

وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء ، ونحو ذلك

اعلم : أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمى ، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حلّه ، أو حبسه عن حقه ، أو إخراجه فى غير وجهه ، أو المفاخرة به ، ولهذا قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾[1] . وفى « سنن الترمذى » عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم ،**

= ورواه مسلم فى كتاب الفضائل رقم [١٦] .

(١) الأنفال : ٢٨ .

بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه »[1] . وقد كان السلف يخافون من فتنة المال . وكان عمر ــ رضى الله عنه ــ إذا رأى الفتوح يبكى ويقول : ما حبس الله هذا عن نبيه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وعن أبى بكر لشرٍّ أراده الله بهما ، وأعطاه عمر إرادة الخير له .

وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل : ما رقيته ؟ قال : أخذه من حلّه ووضعه فى حقه . وقال : مصيبتان للعبد فى ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما ؛ قيل : ما هما ؟ قال : يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله .

● بيان فى مدح المال

قد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغى أن يمدح ، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا ، وقد سماه الله ــ تعالى ــ خيراً ، وهو قوام الآدمى . قال الله ــ تعالى ــ فى أول سورة النساء : ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾[2] . وقال سعيد بن المسيب ــ رحمه الله ــ: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله ، يكف به وجهه عن الناس ، ويصل به رحمه ، ويعطى منه حقه . وقال أبو إسحاق السبيعى : كانوا يرون السعة عوناً على الدين . وقال سفيان : المال فى زماننا هذا سلاح المؤمنين . وحاصل الأمر ، أن المال مثل حية فيها سم وترياق ، فترياقه فوائده ، وغوائله سمه ، فمن عرف فوائده وغوائله ، أمكنه أن يحترز من شره ، ويستدر من خيره .

© فوائد المال :

أما فوائده ، فتنقسم إلى دنيوية ودينية : **أما الدنيوية** : فالخلق يعرفونها ، ولذلك تهالكوا فى طلبها . **وأما الدينية** : فتنحصر فى **ثلاثة** أنواع :

١ ــ *أحدها* : أن ينفقه على نفسه ، إما فى عبادة ، كالحج والجهاد ، وإما فى الاستعانة على العبادة ، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة ، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة ، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به ، فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ، ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا .

٢ ــ *النوع الثانى* : ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام . (أ) **أحدها** : الصدقة ، وفضائلها كثيرة مشهورة .

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٤٥٦/٣ ، ٤٦٠] والترمذى فى « الزهد » باب ٤٣ [٢٢٣/٩] وقال : هذا حديث حسن صحيح . عن كعب بن مالك عن أبيه . (٢) النساء : ٥ .

(ب) القسم الثانى : المروءة ،ونعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك ، وهذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء .

(جـ) القسم الثالث : وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب(*) السفهاء ، وقطع ألسنتهم ، وكف شرهم ، فهو من الفوائد الدينية ، فإن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **وما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة** »(١) . وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة ، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التى تحمل فى الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

(د) القسم الرابع : ما يعطيه أجراً على الاستخدام ، فإن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لمهنة أسبابها كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالك ، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه ، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل بذلك غرضك ، فإن تشاغلك به غبن ، لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد .

٣ ــ *النوع الثالث* : ما لا يصرفه الإنسان إلى معين ، لكن يحصل به خيراً عاماً ، كبناء المساجد ، والقناطر ، والوقوف المؤبدة ، فهذه جملة فوائد المال فى الدين ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة ، من الإخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر ، والعز بين الخلق ، والكرامة فى القلوب ، والوقار . وأما غوائل المال وآفاته ، فتنقسم أيضاً إلى دينية ودنيوية : أما الدينية فثلاث فئات :

الأولى : أنه يجر إلى المعاصى غالباً ، لأن من استشعر القدرة على المعصية ، انبعثت داعيته إليها . والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصى ، ومتى يئس الإنسان من المعصية ، لم تتحرك داعيته إليها . ومن العصمة أن لا تجد ، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهى هلك ، وإن صبر لقى شدة فى معاناة الصبر مع القدرة ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

الثانية : أنه يحرك إلى التنعم فى المباحات ، حتى تصير له عادة وإلفاً ، فلا يصبر عنها ، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة ، فيقتحم الشبهات ، ويترق إلى آفات من المداهنة والنفاق ، لأن من كثر ماله خالط الناس ، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة ، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال .

الثالثة : وهى التى لا ينفك عنها أحد ، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله ــ تعالى ــ ، وهذا هو الداء العضال ، فإن أصل العبادات ذكر الله ــ تعالى ــ ، والتفكير فى جلاله وعظمته ، وذلك يستدعى قلباً فارغاً . وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكرا فى خصومة

(*) ثلبه : صرّح بالعيب فيه وتنقّصهُ .

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه [٢/٥٠] من حديث جابر وصححه ، وتعقبه الذهبى وقال : ضعيف ، وفى مجمع الزوائد [٣/١٣٦] قال الهيثمى : رواه أبو يعلى عن جابر وقال فى إسناده : مسور بن الصلت وهو ضعيف .

الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم ، ويتفكر فى منازعة شركائه فى الحدود والماء ، وأعوان السلطان فى الخراج والإجراء على التقصير فى العمارة ونحو ذلك .

وصاحب التجارة يمسى ويصبح متفكراً فى حيانة شريكه ، وتقصيره فى العمل ،وتضييعه المال . وكذا سائر أصناف المال ، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر فى كيفية حفظه ، وفى الخوف عليه . ومن له قوت يوم بيوم فهو فى سلامة من جميع ذلك ، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا ، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب . فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقى إلى الخيرات ، وما عدا ذلك سموم وآفات .

● بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

واعلم : أن الفقر محمود ، ولكن ينبغى للفقير أن يكون قانعاً ، منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى ما فى أيديهم ، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس . وقد روى فى « صحيح مسلم » عن عمرو ابن العاص ــ رضى الله عنه ــ، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه** »[1] . وقال سليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ: قد جربنا العيش كله ، لينه من شديده ، فوجدناه يكفى منه أدناه . وفى حديث جابر ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **القناعة مال لا ينفد** »[2] .

وقال أبو حازم : ثلاث من كن فيه كمل عقله : من عرف نفسه ، وحفظ لسانه ، وقنع بما رزقه الله ــ عز وجل ــ. وقرأ بعض الحكماء : أنت أخو العِزّ ما التحفت بالقناعة . أما الحرص ، فقد نهى عنه رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقال : « **أيها الناس ، أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له** »[3] . ونهى عن الطمع فقال : « **أجمع اليأس مما فى أيدى الناس** »[4] . وقال بعضهم : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ قال : الشك فى المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك ؟ قال : اكتساب الذل ، ولو قيل له : ما غايتك ؟ قال : الحرمان . وقيل : الطمع يذل الأمير ، واليأس يعز الفقير .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب « الزكاة » باب فى « الكفاف والقناعة » رقم [١٢٥] .

(٢) ذكره السيوطى فى جمع الجوامع [٤٣٦/١] وعزاه للقضاعى عن أنس ، والعسكرى فى الأمثال عن جابر ، وفى كشف الخفاء [١٩٠٠] ، قال العجلونى : قال الذهبى إسناده « واه » .

(٣) رواه ابن ماجه فى « التجارات » رقم [٢١٤٢ ، ٢١٤٤] .

(٤) لفظ الحديث عن أبى أيوب : إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما فى أيدى الناس » أخرجه ابن ماجه [٤١٧١] ، والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عمر ، ومن حديث أنس بنحوه .

● بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذى تكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان : الصبر ، والعلم ، والعمل ، ومجموع ذلك **خمسة** أمور :

الأول : الاقتصاد فى المعيشة ، والرفق فى الإنفاق ، فمن أراد القناعة فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه إلى مالابد منه ، فيقنع بأى طعام كان ، وقليل من الإدام ، وثوب واحد ، ويوطن نفسه على ذلك ، وإن كان له عيال ، فيرد كل واحد إلى هذا القدر . قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ما عال من اقتصد** »[1] وفى حديث آخر : « **التدبير نصف العيش** »[2] . وفى حديث آخر : « **ثلاث منجيات : خشية الله ــ تعالى ــ فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضى والغضب** »[3] .

الثانى : إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه ، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل ، واليقين بأن رزقه لابد أن يأتيه ، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر . وعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إن روح القدس نفث فى روعى ، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصى الله ــ عز وجل ــ، فإنه لا يدرك مَاعند الله إلا بطاعته** »[4]. وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه ، فلا ينبغى أن يضطرب قلبه ، فإن فى الحديث : « **أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب** »[5] .

الثالث : أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء ، وما فى الطمع والحرص من الذل . وليس فى القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول ، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ، والإمام أحمد فى مسنده [٤٤٧/١] .

(٢) انظر كنز العمال حديث [٥٤٣٥] ، [٤٤١٠٠] .

(٣) جزء من حديث طويل ذكره السيوطى فى جمع الجوامع [٤٨٧/١] وعزاه للطبرانى فى الأوسط ولأبى الشيخ فى التوبيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان . والخطيب فى المتفق والمفترق عن أنس ، .. وفى تخريج الإحياء [٢٣٥/٣] عزاه العراقى ــ لغير هؤلاء ــ لأبى نعيم من حديث أنس أيضاً وقال إسناده ضعيف .

(٤) عزاه العراقى لابن أبى الدنيا فى كتاب « القناعة » وكنز العمال [٩٣١٢/٤] .

(٥) عزاه السيوطى فى جمع الجوامع [٤/١] للبيهقى فى شعب الإيمان عن على ، وعزاه العراقى لابن حبان فى الضعفاء وقال : إسناده واهٍ ، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات .

ومن لم يؤثر عزَّ نفسه عن شهوته ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان .

الرابع : أن يكثر تفكره فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين ، ويسمع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين مشابهة أراذل العالمين ، أو صفوة الخلق عند الله ــ تعالى ــ، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير ، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه ، وإن تَنَعَّمَ بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً[1] منه .

الخامس : أن يفهم ما فى جمع المال من الخطر ، كما ذكرنا فى آفات المال ، وينظر إلى ثواب الفقر ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه فى الدنيا ؛ وإلى من فوقه فى الدين ، كما جاء فى الحديث من رواية مسلم أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم** »[2] . عماد الأمر : الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل تمتع دائم ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء .

● فصل فى لزوم القناعة لمن فقد المال

ينبغى لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا ، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف ، فإن السخاء أخلاق الأنبياء ، وهو أصل من أصول النجاة . وعن جابر ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **قال جبريل ــ عليه السلام ــ: قال الله ــ عز وجل ــ: الإسلام دين ارتضيته لنفسى ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه** »[3] . وفى حديث آخر : عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **تجافوا عن ذنوب السخى ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر** »[4] .

وفى حديث آخر : « **الجنة دار الأسخياء ، وما جبل ولى الله إلا على السخاء** »[5] . وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن**

---

(١) السِّفاد : النزو (العملية الجنسية) . (٢) تقدم تخريجه .

(٣) ذكره السيوطى فى جمع الجوامع [٦٠٠/١] وعزاه لابن عدى فى « الكامل فى الضعفاء » والعقيلى فى الضعفاء ولأبى نعيم ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق وللخطيب فى المتفق والمفترق ، وابن عساكر فى تاريخه ، قال العراقى : ورواه الدارقطنى المستجاد ، وسنده ضعيف . وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط والخرائطى فى مكارم الأخلاق ، وقال الخرائطى : « أقيلوا السخى زلته » وفيه ليث بن أبى سليم ــ مختلف فيه ــ، ورواه الطبرانى فيه ، وأبو نعيم من حديث نحوه بإسناد ضعيف ، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق الدارقطنى . [تخريج العراقى ٢٣٩/٣] .

(٥) قال العراقى : رواه ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى ، قال الدارقطنى : لا يصح ، ومن طريقه =

بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام ، ولكن دخولها بسخاء النفس ، وسلامة الصدر ، والنصح للمسلمين »[1] . وفى حديث آخر : « **عليكم باصطناع المعروف ، فإنه يمنع مصارع السوء** »[2]

وقال ابن السماك : عجبت ممن يشترى المماليك بماله ، كيف لا يشترى الأحرار بمعروفه ؟!.

ومن حكايات الأسخياء : قد صح عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وأنه ما سئل شيئاً قط فقال : لا . وأن رجلاً سأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فأتى الرجل قومه ، فقال : ياقوم : أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر . وقيل : كان لعثمان على طلحة ــ رضى الله عنهما ــ خمسون ألف درهم ، فخرج إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فاقبضه ، فقال: هو لك ياأبا محمد معونة على مروءتك . وجاء أعرابى إلى طلحة ، فسأله ، وتعرف إليه برحم ، فقال : إن هذه الرحم ، ما سألنى بها أحد قبلك ، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم .

وقال عروة : رأيت عائشة ــ رضى الله عنها ــ تقسم سبعين ألفاً ، وهى ترقع درعها . وروى أنها قسمت فى يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس ، فلما أمست قالت : ياجارية علىَّ فطورى ، فجاءتها بخبز وزيت : فقالت لها أم درة : أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحماً نفطر عليه !؟ فقالت : لو ذكرتني لفعلت . واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد . فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يبكون على دارهم ، قال : ياغلام : ائتهم ، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً .

وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لى لبن البقر ، فابعث لى بقرة أشرب من لبنها ، فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها ، وقال : القرية التى كانت ترعى فيها لك . ودخل على ابن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد فى مرضه ، فجعل يبكى : فقال : ما شأنك ؟ قال : علىَّ دين ، قال : كم هو ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار ، أو بضعة عشر ألف دينار قال : فهى علىَّ . وجاء رجل إلى معن ، فسأله ، فقال : ياغلام : ناقتى الفلانية وألف دينار ، فدفعها إليه وهو لا يعرفه . وبلغنا عن معن أن شاعراً أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه ، فقال لبعض خدمه : إذا دخل الأمير البستان فعرِّفنى ، قال : فلما دخل عرفه ، فكتب الشاعر

=رواه ابن الجوزى فى الموضوعات ، وقال الذهبى : حديث منكر ما آفته سوى جحدر ، قال العراقى : ورواه الدارقطنى من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقرى وهو ضعيف جدا [تخريج العراقى ٣/٢٤٠] .

(١) قال العراقى : رواه الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد ابن عبد العزيز المبارك الدينورى أورد ابن عدى له مناكير وفى الميزان : إنه ضعيف منكر الحديث ، ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد نحوه ، وفيه صالح المرى متكلم فيه [٣/٢٤٠] .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج عن ابن عباس [جمع الجوامع ١/٥٨٠] .

بيتاً على خشبة ، وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، فلما بصر معن بالخشبة ، أخذها ، فإذا فيها مكتوب :

أيا جود معن ناج معناً بحاجتى فما لى إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعا الرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقاله ، فأمر له بعشر بدر[1] ، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ، وقرأ ما فيها ، ودعا الرجل ، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى ، فلما أخذها الرجل ، خاف أن يعود فيستعيدها منه ، فخرج ، فلما كان اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، فدعا الرجل فطلب فلم يوجد ، فقال معن : حق علىَّ أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار .

ومرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل له ، إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين . فقال : أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ، ينادى : من كان عليه لقيس حق ، فهو منه فى حل ، قال : فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من عاده . وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى ، فقال : سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكى على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائة ألف أخرى .

● فصل فى البخل وذمه

عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق** »[2] . وقال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **لا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً** »[3] . وفى أفراد مسلم ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه كان يقول: « **اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل** »[4] . وروى جابر ــ رضى الله عنه ــ، قال : قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لبنى سلمة : « **من سيدكم ؟ قالوا : جد بن قيس على أننا نبخّله ، قال : وأى داءٍ أدوأ من البخل ؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور** »[5] وهى أصح من ذكر عمرو بن الجموح ، وغلط بعض الرواة ، فقال : البراء بن معرور ، البراء مات قبل الهجرة .

---

(١) البَدرة : عشرة آلاف درهم .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب ما جاء فى البخل وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صدقة بن موسى .

(٣) أخرجه ابن جرير فى « تهذيب الآثار » عن أبى هريرة [جمع الجوامع ٩٢١/١] وعزاه العراقى للنسائى ، ثم قال : فى إسناده اختلاف .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم كتاب « الذكر » ، رقم [٥١ ، ٥٢ ، ٧٣] .

(٥) رواه الحاكم [٢١٩/٣] من حديث أبى هريرة وقال : صحيح الإسناد على شرط مسلم بلفظه : « يابنى سلمة » وقال : سيدكم بشر بن البراء ، وأما الرواية التى قال فيها : « سيدكم عمرو بن الجموح » فرواها الطبرانى =

وعن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهَوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه** »[1]. قال الخطابى : الشح فى المنع أبلغ من البخل . وقال سلمان الفارسى : إذا مات السخى ، قالت الأرض والحفظة : رب تجاوز عن عبدك فى الدنيا بسخائه ، وإذا مات البخيل قالت : اللهم احجب هذا العبد عن الجنة ، كما حجب عبادك عما جعلت فى يديه من الدنيا . وقال بعض الحكماء :من كانبخيلاً ورث ماله عدوه . ووصف أعرابى رجلاً فقال : لقد صغر فى عينى لعظم الدنيا فى عينه . وذم أعرابى قوماً فقال : يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش .

من حكايات البخلاء : روى عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ قال : كان الحاجب رجلاً من أجل العرب ، وكان بخيلاً ، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راءٍ فينتفع بضوئها ، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم بصر بمستضىء بها أطفأها . وقيل : كان مروان ابن أبى حفصة من أبخل الناس ، فخرج يريد المهدى ، فقالت له امرأته : ما لى عليك إن رجعت بالجائزة ؟ قال : إن أعطيت مائة ألف درهم ، أعطيتك درهماً ، فأعطى ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانق . وقيل : كان بعض البخلاء موسراً كثير الأموال ، وكان ينظر فى دقائق الأشياء فاشترى شيئاً من الحوائج ، ودعا حمالاً وقال : بكم تحمل هذه الحوائج ؟ قال : بحبة . قال : أبخس . قال ما أقل من حبة ؟ . لا أدرى ما أقول . قال : نشترى بالحبة جزراً ، فنجلس جميعاً فنأكله .

● فصل فى فضل الإيثار وبيانه

اعلم أن السخاء والبخل درجات : فأرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه . وأشد درجات البخل ، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ، ويمرض فلا يتداوى ويشتهى الشهوة فيمنعه منها البخل . فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة ، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة فالأخلاق عطايا يضعها الله ــ عز وجل ــ حيث يشاء . وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء ، وقد أثنى الله ــ تعالى ــ على أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بالإيثار ، فقال : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾[2] . وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبى طلحة ، لما آثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه ، وحكايته مشهورة .

واستشهد باليرموك عكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وجماعة من بنى المغيرة ، فأتوا بماءٍ وهم صرعى ، فتدافعوه حتى ماتوا و لم يذوقوه . أتى عكرمة

= فى الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن ، قاله العراقى .

(١) جزء من حديث طويل إسناده ضعيف ذكره السيوطى فى جمع الجوامع [٤٨٧/١] تقدم تخريجه قريباً .

(٢) الحشر : ٩ .

بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه ، فقال : ابدأ بهذا ، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه ، فقال : ابدأ بهذا ، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة ، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا ، فمر بهم خالد بن الوليد فقال : بنفسى أنتم . وأهدى إلى الرجل من الصحابة — رضى الله عنه — رأس شاة ، فقال : إن أخى أحوج إليه منى ، فبعث به إلى رجل ، فبعث به ذلك إلى آخر ، حتى تداولته سبع أبيات ، فرجع إلى الأول .

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها ، إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصاً فأكله ، ثم رمى إليه قرصاً آخر فأكله ، ثم رمى إليه ثالث فأكله ، وعبد الله ينظر فقال : ياغلام ! كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رأيت ، قال : فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال : ما هى بأرض كلاب ، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده ، قال : فما أنت صانع ؟ قال : أطوى يومى هذا ، فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء وهذا أسخى منى ، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات ، واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له . واجتمع جماعة من الفقراء فى موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان ، وأطفأوا السراج ، وجلسوا للأكل ، فلما رفع الطعام ، إذا هو بحاله ، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه .

● فصل فى حد البخل والسخاء

وقد تكلم الناس فى حد البخل والسخاء ، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب ، وأن من أدى ما يجب عليه ،فليس ببخيل ، وهذا غير كافٍ ، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذى يفرضه الحاكم ، ثم يضايقهم فى زيادة لقمة أو تمرة فإنه معدود من البخلاء ، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب فى الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل . فأما الواجب بالشرع ، فهو الزكاة ، ونفقة العيال . وأما اللازم بطريق المروءة ، فهو ترك المضايقة ، والاستقصاء عن المحقرات ، فإن ذلك يستقبح ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص ، فقد يستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير ، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب ، فالبخيل الذى يمنع ما لا ينبغى أن يمنع ، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة . ومن قام بواجب الشرع ، ولازم المروءة ، فقد تبرأ من البخل ، لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك . قال بعضهم : الجواد : هو الذى يعطى بلا منٍّ . وقيل : هو الذى يفرح بالإعطاء . فأما علاج البخل ، فاعلم أن سبب البخل حب المال .

◉ أسباب حب المال :

ولحب المال سببان : **أحدهما** : حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول

الأمل ، وإن كان قصير الأمل وله ولد ، فإنه يقوم مقام طول الأمل . **الثانى** : أن يحب عين المال ، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به ، ويفضل معه آلاف ، ويكون شيخاً لا ولد له ، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه ، ولا بصدقة تنفعه ، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه ، أو ضاع إن كان مدفوناً ، وهذا مرض لا يرجى علاجه . ومثال ذلك مثال رجل أحب شخصاً ، فلما جاء رسوله ، أحب الرسول ونسى محبوبه واشتغل بالرسول ، فإن الدنيا رسول مبلغ إلى الحاجات ، فيحب الدنانير لذاتها ، وينسى الحاجات ، وهذا غاية الضلال .

واعلم : أن علاج كل علة بمضادة سببها . فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر ، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت . ويعالج التفات القلب إلى الولد ، بأن من خلقه خلق معه رزقه ، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث . فليحذر أن يترك لولده الخير ، ويقدم على الله بشر ، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه ، وإن كان فاسقاً فلا يترك ما يستعين به على المعاصى ، وليردد على سمعه ما ذكرناه فى ذم البخل ومدح السخاء .

واعلم : أنه إذا كثرت المحبوبات فى الدنيا ، كثرت المصائب بفقدها ، فمن عرف افة المال لم يأنس به ، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته ، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل ، والله أعلم .

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول ، وغير ذلك

القسم الأول من الكتاب

وروى عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية** »(*) . وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء ، فضلاً عن عامة العباد ، وإنما يبتلى بها العلماء والعبَّاد المشمِّرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات ، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات ، لم تطمع فى المعاصى الظاهرة ، الواقعة على الجوارح ، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل ، ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة فى لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم ، فأصابت النفس فى ذلك لذة عظيمة ، فاحتقرت فيها ترك المعاصى ، فأحدهم يظن أنه مخلص لله ــ عزّ وجل ــ ، وقد أثبت فى ديوان المنافقين ، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون . ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين

(*) رواه ابن ماجه فى سننه ، كتاب « الزهد » باب « الرياء والسمعة » رقم [٤٢٠٤] ، من حديث شداد ابن أوس ، وقال : « الشرك » بدل « الرياء » ، قال الحاكم صحيح الإسناد . قال العراقى : بل الإسناد ضعيف وهو عند ابن المبارك فى الزهد ، ومن طريقه عند البيهقى فى شعب الإيمان [تخريج الإحياء ٢٦٨/٣] .

حب الرياسة ، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين ، الذى هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول فى سببه ، وحقيقته ، وأقسامه .

اعلم : أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار ، وذلك خطر عظيم ، والسلامة فى الخمول . وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة ، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها ، فإن وقعت من قبل الله ــ تعالى ــ ، فروا عنها ، وكانوا يؤثرون الخمول ، كما روى عن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أنه خرج من منزله ، فتبعه جماعة ، فالتفت إليهم وقال : علام تتبعونى ؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان . وفى لفظ آخر أنه قال : ارجعوا ، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع . وكان أبو العالية ــ رحمه الله ــ إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام . وكان خالد بن معدان ــ رحمه الله ــ إذا عظمت حلقته ، قام وانصرف كراهة الشهرة . وقال الزهرى ــ رحمه الله ــ: ما رأينا الزهد فى شىء أقل منه فى الرياسة ، نرى الرجل يزهد فى المطعم والمشرب والمال ، فإذا نوزع الرياسة ، حامى عليها وعادى .

قال رجل لبشر الحافى ــ رحمه الله ــ: أوصنى ، فقال : أخمل ذكرك ، وطيب مطعمك ، وقال : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب فى الدنيا أن يعرفه الناس . وقد روى فى « صحيح مسلم » أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو فى غنم له خارجاً عن المدينة ، فلما رآه قال : أعوذ بالله من شر هذا الراكب ، فلما أتاه قال : يا أبت أنزلت فى إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم ؟ فضرب سعد فى صدره وقال : اسكت ، إنى سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : « **إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى** »[1] .

وعن أبى أمامة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن أغبط أولياىَ عندى لمؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من الصلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه فى السر ، وكان غامضاً فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر على ذلك** » ثم نقر بيده ، فقال : « **عُجِّلَتْ منيَّته ، قلَّت بواكيه ، قلَّ تراثه** » حديث حسن[2] . وكان ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ يوصى أصحابه ، فيقول : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت ، سرج الليل ، جدد القلوب ، خلقان الثياب ، تُعرفون فى السماء ، وتَخْفَوْنَ على أهل الأرض . فإن قيل : هذا فيه فضيلة الخمول ، وذم الشهرة ، وأى شهرة أكثر من شهرة الأنبياء ، وأئمة العلماء . قلنا : المذمُوم طلب الإنسان الشهرة ، وأما وجودها من جهة الله ــ تعالى ــ من غير طلب الإنسان فليس بمذموم ، غير أن فى وجودها فتنة على الضعفاء ، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة فى السباحة ، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه ، فأما السابح النحرير ، فإن تعلق الغرق به سبب لنجاتهم وخلاصهم .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم « كتاب الزهد والرقائق » حديث [١١] .

(٢) رواه الترمذى فى « الزهد » باب [٣٥] [٢٠٩/٩] وقال : هذا حديث حسن .

● فصل فى ان الجاه والمال هما ركنا الدنيا

واعلم : أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها ، وطاعتها ، والتصرف فيها . فالجاه هو قيام المنزلة فى قلوب الناس ، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال فى هذا الشخص ، إما من علم أو عبادة ، أو نسب أو قوة ، أو حسن صورة ، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالاً فبقدر ما يعتقدون له من ذلك ، تذعن قلوبهم لطاعته ، ومدحه وخدمته ، وتوقيره . فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع ، وأنه أبلغ من حب المال ، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه ، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات ، فاشتراك الجاه والمال فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، والجاه فى ذلك أرجح من المال .

واعلم : أن من الجاه ما يحمد وما يذم ، لأن من المعلوم أنه لابد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما ، فكذلك لابد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلى سلطان يحرسه ، ورفيق يعينه ، وخادم يخدمه ، فحبه ذلك ليس بمذموم ، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض ، كالمال . والتحقيق فى هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانهما ، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح ، كقول يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾[1] . أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته ، كان ذلك مباحاً ، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه ، كالعلم ،والورع ، والنسب ، فذلك محظور . وكذلك لو حسَّن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع ، فإنه يكون مرائياً بذلك ، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير ، ولا تملك المال بتلبيس .

● بيان علاج حب الجاه

اعلم : أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصورَ الهمِّ على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتردد إليهم ،والمراءاة لهم ، ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق ، وأصل الفساد ، لأن كل من طلب المنزلة فى قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه ، ويجر ذلك إلى المراءاة بالعبادات واقتحام المحظورات ، والتوصل إلى اقتناص القلوب . ولذلك شبَّه الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين أرسلا فى غنم . فحب الجاه إذاً من المهلكات ، يجب علاجه ، وعلاجه مركب من علم وعمل ، أما الأول ، فهو أن يعلم أن السبب الذى لأجله أحب الجاه ، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم ، وذلك إذا صفا وسلم يكون فى آخره الموت ، فينبغى أن يتفكر فى نفسه فى الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب

(١) يوسف : ٥٥ .

الجاه فى الدنيا ، من تطرق الحسد إليهم ، وقصدهم بالإيذاء ، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم ، محترزين من تغيير منزلتهم فى القلوب .

والقلوب أشد تغيراً من القدر فى غليانها ، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة ، مكدرة لحفظ الجاه ، فلا يفى مرجو الدنيا بمخوفها ، فضلاً عما يفوت فى الآخرة ، فهذا من حيث العلم . وأما العلاج من حيث العمل ، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك ، كما روى أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد ، فلما قرب منه ، استدعى طعاماً وبقلاً ولبناً ، وجعل يأكل بَشَره، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه . ولما أريد إبراهيم النخعى على القضاء لبس قميصاً أحمر وقعد فى السوق .

واعلم : أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم ، فإذا خاف من تلك الفتنة ، فليخالطهم على وجه السلامة ، وليمش فى الأسواق ، وليشتر حاجته ويحملها ، وليقطع طمعه من دنياهم ، وقد تم مراده . وكان بشر الحافى يجلس إلى عطار ، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم .

● فصل فى عدم الاكتراث بذم الناس

واعلم : أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس ، وحب مدحهم ، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس ، رجاء المدح ، وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات ، فوجبت معالجته . وطريق ذلك أن ننظر إلى الصفة التى مدحت بها ، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو : إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع ، أو مما لا يصلح أن يفرح به ، كالجاه والمال . أما الأول ، فينبغى أن يحذر من الخاتمة ، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح ، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ، فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس . وأما القسم الثانى ، وهو المدح بسبب الجاه والمال ، فالفرح بذلك ، كالفرح بنبات الأرض الذى يصير عن قريب هشيماً ، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله ، وإن كنت خالياً عن الصفة التى مدحت بها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون . وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم فى كتاب آفات اللسان ، فلا ينبغى أن تفرح به ، بل تكرهه ، كما كان السلف يكرهونه ، ويغضبون على فاعله .

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح ، فإنه ضده ، والقول الوجيز فيه أن من ذمك ، إما أن يكون صادقاً فيما قال ، قاصداً للنصح لك ، فينبغى أن تتقلد منته ، ولا تغضب ، فإنه قد أهدى إليك عيوبك ، وإن لم يقصد بذلك النصح ، فإنه يكون قد جنى هو على دينه ، وانتفعت بقوله ، لأنه عرَّفك ما لم تكن تعرف ، وذكَّرك من خطاياك ما نسيت ، وإن افترى عليك بما أنت منه برىء ، فينبغى أن تتفكر فى ثلاثة أشياء :

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله ، فما ستر الله ــ عز وجل ــ عليك من عيوبك أكثر[1] ، فاشكره إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه بريء . **الثانى** : أن ذلك كفارات لذنوبك . **الثالث** : أنه جنى على دينه ، وتعرض لغضب الله عليه ، فينبغى أن يسأل الله العفو عنه ، كما روى أن رجلاً شج إبراهيم بن أدهم ، فدعا له بالمغفرة وقال : صرت مأجوراً بسببه ، فلا أجعله معاقباً بسببى ، وقد تقدمت هذه الحكاية فى فضل الحلم .

● القسم الثانى من الكتاب

فى بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه ونحو ذلك

وقد ورد ذم الرياء فى الكتاب والسنة ، من ذلك قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾[3] وأما الأحاديث ، فقد روى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، فيما يرويه عن ربه ــ عزَّ وجل ــ أنه قال : « **من عمل عملاً أشرك فيه غيرى ، فهو للذى أشرك ، وأنا منه برىء** »[4]. وفى حديث آخر : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » . قالوا : يارسول الله : وما الشرك الأصغر ؟ قال « **الرياء ، يقول الله ــ عزَّ وجل ــ لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا ، هل تجدون عندهم جزاءً** »[5]. وقال بشر الحافى : لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إلىَّ من أن أطلبها بالدين .

© أنواع الرياء :

واعلم : أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، فالمرائى يرى الناس ما يطلب به الحظوة عندهم وذلك أقسام :

---

(١) قال الإمام الشافعى رحمه الله :

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صيِّنُ
لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معايباً ... فصُنها وقل ياعين للناس أعين

(٢) الماعون : ٤ ــ ٦ . (٣) الكهف : ١١٠ .

(٤) رواه مالك فى الموطأ من حديث أبى هريرة واللفظ له دون قوله : « وأنا منه برىء » ، ومسلم ــ مع تقديم وتأخير دونها أيضاً ــ فى الزهد رقم [٤٦] ، وهى عند ابن ماجه فى الزهد « باب الرياء والسمعة » رقم [٤٢٠٢] بسند صحيح .

(٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده [٤٢٨/٥] والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث محمود بن لبيد ، وله رواية ورجاله ثقات ، ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج ، وانظر تخريج العراقى للحديث =

الأول : الرياء الدين ، وهو أنواع : **أحدها** : أن يكون من جهة البيدن ، بإظهار النحول والصفار ، ليريهم بذلك شدة الاجتهاد ، وغلبة خوف الآخرة ، وكذلك يرائى بتشعث الشعر ، ليظهر أنه مستغرق فى هَمِّ الدين ، لا يتفرغ لتسريح شعره . ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، ولهذا قال عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ : « **إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ، ويرجل شعره** » . وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء ، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين . وأما أهل الدنيا ، فيراؤون بإظهار السمن ، وصفاء اللون ، واعتدال القامة ، وحسن الوجه ، ونظافة البدن .

النوع الثانى ــ الرياء من جهة الزى : كالإطراق حالة المشى ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشمير الثياب كثيراً ، وتقصير الأكمام ، وترك الثوب مخرقاً غير نظيف . ومن ذلك لبس المرقعة ، والثياب الزرق ، تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من صفاتهم فى الباطن . ومنه التقنع فوق العمامة ، لتنصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة . وهؤلاء طبقات ، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح ، بإظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة ، ليرائى بذلك ، ولو كلف هذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه ، لكان عنده بمنزلة الذبح ، لخوفه أن يقول الناس : قد بدا له من الزهد ، وقد رجع عن تلك الطريقة . وطبقة أخرى : يطلبون القبول عند أهل الصلاح ، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار ، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم يقبلهم أهل الصلاح ، ولو لبسوا المخرقة الدنية لازدرتهم الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فيطلبون الأثواب الرقيقة ، والأكسية الرفيعة والفوط الرفيعة فيلبسونها ، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغنى ، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء ، فيلتمسون القبول عند الفريقين . وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ ، لكان عندهم كالذبح ، خوفاً من السقوط فى أعين الملوك والأغنياء ، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك ، لعظم ذلك عليهم ، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح ، وكل مراءٍ بزى مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفاً من المذمة . وأما أهل الدنيا ، فمراءاتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الحسنة ، وأنواع التجمل فى الملبس والمسكن وأثاث البيت ، وهم فى بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة ، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة .

النوع الثالث ــ الرياء بالقول ، ورياء أهل الدين : بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل المحاورة ، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف ،

= [٢٨٦/٣] ، وللحاكم [٣٢٩/٤] وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس : كنا نعد على عهد رسول الله ــ ﷺ ــ أن الرياء الشرك الأصغر .

وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس ، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس ، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك . **وأما أهل الدنيا** ، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح فى الكلام ونحو ذلك .

النوع الرابع ــ الرياء بالعمل : كمراءاة المصلى بطول القيام ، وتطويل الركوع والسجود ، وإظهار الخشوع ، ونحو ذلك . وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك . وأما أهل الدنيا فمراءاتهم ، بالتبختر ، والاختيال ، وتحريك اليدين ، وتقريب الخطى ، والأخذ بأطراف الذيل ، وإمالة العطفين ، ليدلوا بذلك على الحشمة .

النوع الخامس ــ المراءاة بالأصحاب والزائرين : كالذى يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً ، ليقال : إن فلاناً قد زار فلاناً ، وإن أهل الدين يترددون إليه ، ويتبركون به ، وكذلك من يرائى بكثرة الشيوخ ، ليقال : لقى شيوخاً كثيرة ، واستفاد منهم ، فيباهى بذلك ، فهذه مجامع ما يرائى به المرآءون ، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد . ومنهم من يطلب مجرد الجاه ، وكم من عابد اعتزل فى جبل ، وراهب انزوى إلى دير ، مع قطع طمعهم من مال الناس ، لكنه يحب مجرد الجاه . ومنهم من يكون قصده المال ، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت . فإن قيل : هل الرياء حرام ، أم مكروه ، أم مباح ؟

فالجواب : أن فيه تفصيلاً ، وهو إما أن يكون بالعبادات ، أو بغيرها ، فإن كان الرياء بالعبادات ، فهو حرام ، فإن المرائى بصلاته وصدقته وحجته ، ونحو ذلك ، عاص آثم ، لأنه يقصد بذلك غير الله ــ تعالى ــ المستحق للعبادة وحده ، فالمرائى بذلك فى سخط الله . وإما إن كان بغير العبادات ، فهو كطلب المال على ما تقدم ، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة فى قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه ، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود ، فكذلك الجاه ، وهو الذى طلبه يوسف ــ عليه السلام ــ فى قوله : ﴿ **إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾[1] . ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر ، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا فى المال .

وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه ، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال ، فلا ضرر فيه ، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وعلماء الدين بعده ، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين ، ولا يوصف بالتحريم . وتحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس ، إنما هو ليراه الناس ، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال : إنه منهى عنه . وقد تختلف المقاصد بذلك ، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص فى حال . وفى أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **لا يدخل الجنة من كان**

---

(١) يوسف : ٥٥ .

فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس(*) »(1) . ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه ، وقد أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بذلك .

● فصل فى أن أبواب الرياء بعضها أشد من بعض

◉ درجات الرياء :

واعلم : أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض ، لأنه درجات :

* **الأولى** : أشدها وأغلظها أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً ، كالذى يصلى بين الناس ، ولو انفرد لم يصل .

* **الثانية** : أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله ، فهو قريب من القسم الأول فى كونهما ممقوتين عند الله ــ تعالى ــ.

* **الثالثة** : أن يكون قصد الرياء ، وقصد الثواب متساويين ، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل ، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح ، ولا يسلم من الإثم .

* **الرابعة** : أن يكون اطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه ، ولو لم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة ، فهذا يثاب على قصده الصحيح ، ويعاقب على قصده الفاسد ، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها ، كالذى يصلى وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضاً من الرياء المحظور ، لأنه يتضمن تعظيم الخلق ، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات .

● بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلى وخفى : **فالجلى** : هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه . وأخفى منه قليلاً رياء لا يبعث على العمل بمجرده ، لكن يخفف العمل الذى أريد به وجه الله ــ تعالى ــ، كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه ، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر فى العمل ولا فى التسهيل ، لكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومتى لم يؤثر الدعاء فى العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أنه يسر باطلاع الناس على طاعته ، فرب عبد مخلص يخلص العمل ، ولا يقصد الرياء بل يكرهه ، ويتم العمل على ذلك ، لكن إذا اطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، فهذا السرور يدل على رياء خفى منه يرشح السرور ، ولولا

(*) غَمْطُ الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم .

(1) رواه مسلم فى صحيحه كتاب « الإيمان » باب « تحريم الكبر وبيانه » برقم [١٤٧] .

التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فيعلم أن الرياء كان مستكناً فى القلب استكنان النار فى الحجر ، فأظهر منه اطلاع الناس أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك بكراهة ، بل قد يتحرك حركة خفيفة ، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح .

وقد يخفى ، فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً ، ولكن بالشمائل كإظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، ويبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد . وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لا يريد الاطلاع عليه ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا فى قضاء حوائجه ، ويسامحوه فى المعاملة ، ويوسعوا له المكان ، فإن قصر فى ذلك مقصر ، ثقل ذلك على قلبه ، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التى أخفاها . ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل ما يتعلق بالخلق ، لم يكن خالياً عن شوب خفى من الرياء ، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر ، ولا يسلم منه إلا الصدّيقون . وقد روينا عن وهب بن منبه ، أن رجلاً من العبّاد قال لأصحابه : إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان ، وإنا نخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم ، إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن كان له حاجة أحبَ أن تقضى لمكان دينه : وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم ، فركب فى موكبه ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس ، فقال العابد : ما هذا ؟ قيل : هذا الملك ، فقال لصاحبه : ائتنى بطعام . فأتاه ببقل وزبيب وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفاً ، فقال الملك : أين صاحبكم ؟ فقالوا : هذا ، فقال : كيف أنت ؟ قال : كالناس ، فقال الملك : ما عند هذا خير ، وانصرف عنه ، فقال : الحمد لله الذى صرفه عنى وهو لى لائم .

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى ، يجتهدون فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله ــ تعالى ــ فى القيامة بإخلاصهم . وشوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته أو لا يطلع ، ففيه شعبة من الرياء ، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ومفسداً للعمل ، بل فيه تفصيل . فإن قيل : فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته ، فهل جميع ذلك مذموم ؟ فالجواب : أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم .

فالمحمود : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله ــ تعالى ــ أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله ، فيسر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه

به ، حيث كان يستر الطاعة والمعصية ، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة ، وستر عليه المعصية ، ولا لطف أعظم من ستر القبيح ، وإظهار الجميل ، فيكون فرحه بذلك ، لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم ، أو يستدل بإظهار الله الجميل ، وستر القبيح عليه فى الدنيا ، أنه كذلك يفعل به فى الآخرة ، فإنه قد جاء معنى ذلك فى الحديث . فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم ، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه ، فهذا مكروه مذموم .

فإن قيل : فما وجه حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رجل : يارسول الله ، الرجل يعمل العمل فيسره ، فإذا اطلع عليه ، أعجبه ، فقال : « **له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية** »[1] . **فالجواب** : أن هذا الحديث ضعيف ، وقد رواه الترمذى ، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه : أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير ، لقوله ــ عليه السلام ــ : « **أنتم شهداء الله فى الأرض** »[2].

وقد روى فى أفراد مسلم من حديث أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ قال : قيل : يارسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ فقال : « **تلك عاجل بشرى المؤمن** »[3]. فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه ، فهذا رياء .

● فصل فى بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا ورد على العبد وارد الرياء ، فلا يخلو : إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله ، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه ، فهذا لا يحبط العمل ، لأنه قد تم على نعت الإخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده ، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ، فأما أن تحدث به بعد تمامه وأظهره ، فهذا مخوف ، والغالب عليه أنه كان فى قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء ، فإن سلم من الرياء نقص أجره ، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة . وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة ، كالصلاة التى عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور ، لم يؤثر فى العمل ، وإن كان رياء باعثاً على العمل ، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه ، فهذا يحبط الأجر . وأما ما يقارن العبادة ، مثل أن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء ، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها ، وإن ندم فيها على فعله ، فالذى ينبغى له أن يبتدئها ، والله أعلم .

---

(١) رواه الترمذى فى الزهد باب ٤٩ (ما جاء فى عمل السر) وقال حسن غريب، وقال : إنه روى عن أبى صالح وهو ذكر أنه مرسل .

(٢) الطبرانى فى الكبير عن سلمة بن الأكوع [جمع الجوامع ٣٣٢/١] ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٥/٣] رواه الطبرانى فى الكبير وفيه موسى بن عبيدة ضعيف .

(٣) صحيح مسلم كتاب « البر والصلة » باب « إذا أثنى على الصالح فهى بشرى ولا تضره » رقم [١٦٦] .

● باب فى دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت آن الرياء محبط للأعمال ، وسبب لمقت الله ــ تعالى ــ، وأنه من المهلكات ، ومن هذا حاله ، فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته . وفى معالجته مقامان : **أحدهما** : فى قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه . **والثانى** : فى دفع ما يخطر منه فى الحال .

* ***المقام الأول*** : أعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة ، وإذا فصل ، رجع إلى ثلاثة أصول . وهى حب لذة الحمد ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما فى أيدى الناس . ويشهد لذلك ما فى « الصحيحين » من حديث أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ قال : جاء رجل إلى النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقال : يارسول الله ، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله** »[1] . فمعنى قوله : « يقاتل شجاعة » أى : ليذكر ويحمد ، ومعنى قوله : « يقاتل حمية » أى : يأنف أن يقهر أو يذم ، ومعنى : « يقاتل رياء » أى : ليرى مكانه، وهذا هو لذة الجاه والمنزلة فى القلوب . وقد لا يشتهى الإنسان الحمد ، ولكنه يحذر من الذم ، كالجبان بين الشجعان ، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم . وقد يفتى الإنسان بغير علم حذراً من الذم بالجهل ، فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك إلى الرياء .

وعلاجه أن الإنسان إنما يقصد الشىء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع ، إما فى الحال أو المآل ، فإن علم أنه لذيذ فى الحال ضارٌ فى المآل ، سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة ، كمن يعلم أن العسل لذيذ ، ولكن إذا بان أن فيه سماً ، أعرض عنه ، فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرة، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه ، ومن المنزلة فى الآخرة ، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزى ، هذا مع ما يتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإنَّ رضى الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ، ومن طلب رضاهم فى سخط الله ، سخط الله عليه وأسخطهم عليه . ثم أى غرض له فى مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم ؟ ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته . وكذلك ذمهم لم يحذر منه ؟ ولا يضره ذمهم شيئاً ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه ، فإن العباد كلهم عجزة ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فإذا قرر هذا فى نفسه ، فترت رغبته فى الرياء ، وأقبل على الله ــ تعالى ــ بقلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه .

وأما الطمع فيما فى أيدى الناس ، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى ــ هو المسخر للقلوب

---

(١) رواه البخارى فى العلم باب [من سأل وهو قائم عالمًا جالسًا ، رقم ١٢٣ ومسلم فى « الإمارة » برقم [١٥٠ ، ١٥١] ، المسند [٣٩٢/٤ ، ٣٩٧] .

بالمنع والإعطاء ، وأنه لا رازق سواه ، ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد ، لم يخل من المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد . ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، فإنه لا دواء فى الرياء مثل إخفاء الأعمال ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة ، فإذا صبر عليه مدة بالتكلف ، سقط عنه ثقله ، وأمده الله بالعون ، فعلى العبد المجاهدة ، ومن الله التوفيق .

المقام الثانى : فى دفع العارض من الرياء أثناء العبادة ، وذلك لابد من تعلمه أيضاً ، فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس ، واحتقار مدحهم وذمهم ، فإن الشيطان لا يتركه فى أثناء العبادة ، بل يعارضه بخطرات الرياء ، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها ، دفع ذلك بأن يقول : مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا ، والله عالم بحالك ، فأى فائدة فى علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد ، ذكرها آفات الرياء والتعرض للمقت ، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت ، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة .

فصل فى بيان الرخصة فى قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب ، وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول ، فاعلم أن فى إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفى الإظهار فائدة الاقتداء ، وترغيب الناس فى الخير . ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد . والمظهر للعمل ينبغى أن يراقب قلبه ، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفى ، بل ينوى الاقتداء به ، ولا ينبغى للضعيف أن يخدع نفسه بذلك ، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم ، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك معهم . فأما من قوى وتم إخلاصه ، وصغر الناس فى عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، فلا بأس بالإظهار له ، لأن الترغيب فى الخير خير .

وقد روى ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدى بهم ، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر : لا تبكوا علىَّ ، فإنى ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت . وقال أبو بكر بن عياش ــ رحمه الله ــ لابنه : إياك أن تعصى الله ــ تعالى ــ فى هذه الغرفة ، فإنى ختمت فيها اثنتى عشرة ألف ختمة . ونحو ذلك كثير من كلامهم ، والله أعلم . وأما الرخصة فى كتمان الذنوب ، [فربما ظن ظان أن كتمان الخطايا رياء ، وليس كذلك] فإن الصادق الذى لا يرائى إذا وقعت منه معصية ، كان له سترها ، لأن الله يكره ظهور المعاصى ويحب سترها .

وقد روى عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات ، فليستتر بستر الله ــ عز وجل ــ** »[1] . فهذا وإن عصى بالذنب ، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ــ عز وجل ــ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان . وينبغى أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ، فهذا أثر الصدق فيه . ومن ذلك أن يكره ذم الناس له ، من حيث أن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله ــ تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم ، وبهذه العلة أيضاً ينبغى أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله ــ تعالى ــ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر ، فإن هذا أيضاً من قوة الإيمان .

● فصل فى ترك الطاعات خوفاً من الرياء

فأما ترك الطاعات خوفاً من الرياء ، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين ، فهذا ينبغى أن يترك ، لأنه معصية لا طاعة فيه . وإن كان الباعث على ذلك الدين ، وكان ذلك لأجل الله ــ تعالى ــ خالصاً ، فلا ينبغى أن يترك العمل ، لأن الباعث الدين . وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال : إنه مراءٍ ، فلا ينبغى ذلك ، لأنه من مكائد الشيطان . قال إبراهيم النخعى : إذا أتاك الشيطان وأنت فى صلاة فقال : إنك مراءٍ ، فزدها طولاً . وأما ما روى عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء . كما روى عن إبراهيم النخعى أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ فى المصحف ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال : لا يرانى هذا أنى أقرأ كل ساعة ، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا .

فصل فى بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

قد يبيت الرجل مع المتهجدين ، فيصلون أكثر الليل ، وعادته قيام ساعة ، فيوافقهم ، أو يصومون فيصوم ، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط . فربما طن ظان أن هذا رياء ، وليس كذلك على الإطلاق ، بل فيه تفصيل ، وهو أن كل مؤمن يرغب فى عبادة الله ــ تعالى ــ، ولكن تعوقه العوائق ، وتستهويه الغفلة ، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة واندفاع العوائق ، فإن الإنسان إذا كان فى منزله تمكن من النوم على فراش وطىء وتمتع بزوجته ، فإذا بات فى مكان غريب ، اندفعت هذه الشواغل ، وحصلت له أسباب تبعث على الخير ، منها مشاهدة العابدين . وقد يعسر عليه الصوم فى منزله لكثرة المطاعم ، بخلاف غيره ، ففى مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة ، ويقول : إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً ، فلا ينبغى أن يلتفت إليه ، وإنما ينبغى أن ينظر إلى قصده الباطن ، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان .

---

(١) رواه الحاكم بنحوه فى مستدركه [٤/٣٨٣] وصححه ، ووافقه الذهبى .

ويختبر أمره بأن يمثل القوم فى مكان يراهم ولا يرونه ، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله ، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء ، وقس على هذا . فهذه جملة آفات الرياء ، فكن بحاثاً عنها ، وتفقد نيتك ، فإن الرياء أخفى من دبيب النمل . وينبغى للمريد أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله فى جميع طاعته . وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه ، ولا ينبغى أن يؤيس نفسه من الإخلاص بأن يقول : إنما يقدر عل الإخلاص الأقوياء ، وأنا من المخلطين ، فيترك المجاهدة فى تحصيل الإخلاص ، لأن المخلط إلى ذلك أحوج .

قال إبراهيم بن أدهم : تعلمت المعرفة من راهب يقال له : سمعان . دخلت على صومعته فقلت له : منذ كم أنت فى صومعتك هذه ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : ما طعامك ؟ قال : كل ليلة حمصة ، قلت : فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الذين بحذائك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتونى فى كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتى ويطوفون حولها يعظمونى بذلك ، فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ، ذكرتها عزَّ تلك الساعة ، فأنا احتمل جهد سنة لعز ساعة ، فاحتمل ياحنيفى جهد ساعة لعز الأبد ، فوقَر فى قلبى المعرفة ، فقال : أزيدك ؟ قلت : نعم ، قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى إلىَّ ركوة فيها عشرين حمصة ، ثم قال لى : ادخل الدير ، فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير ، اجتمعت النصارى فقالوا : ياحنيفى ، ما الذى أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : شيئاً من قوته . قالوا : وما تصنع به ؟ نحن أحق به ، ساوم به . قلت : عشرون ديناراً ، فأعطونى عشرين ديناراً ، فرجعت إلى الراهب ، فقال : أخطأت ، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك ، هذا عز من لا يعبده ، فانظر كيف يكون عز من يعبده ، ياحنيفى أقبل على عبادة ربك . فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عزَّ العظمة فى القلوب يكون باعثاً إلى الخلوة ، فهذه آفة عظيمة ، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ، ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره ، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله ، والله تعالى أعلم .

● كتاب ذم الكبر والعجب

وهما فصلان :

الفصل الأول فى الكبر

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾[1] . وقال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِينَ ﴾[2] . وفى الحديث الصحيح من أفراد مسلم ، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[3] . وفى « الصحيحين » عنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ

(١) الأعراف : ١٤٦ . (٢) النحل : ٢٣ . (٣) تقدم تخريجه .

قال : « **قالت النار : أوثرت بالمتكبرين** »[1]. وعنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **يحشر الجبّارون والمتكبرون يوم القيامة فى صورة الذر ، يطؤهم الناس لهوانهم على الله ــ عز وجل ــ** »[2].

وقال سفيان بن عيينة ــ رحمه الله ــ: من كانت معصيته فى شهوة ، فارج له التوبة ، فإن آدم ــ عليه السلام ــ عصى مشتهياً فغفر له ، فإذا كانت معصيته من كبر ، فاخش عليه اللعنة ، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعنَ . وفى « الصحيحين » : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فقال أبو بكر : يارسول الله إنَّ أحدَ شقَّى إزارى ليسترخى ، إلا أن أتعاهد ذلك منه ؟ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « لست ممن يصنعه خيلاء** »[3].

واعلم : أن الكبر خلق باطن تصدر عن أعمال هى ثمرته ، فيظهر على الجوارح ، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه ، يعنى يرى نفسه فوق الغير فى صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً . وبهذا ينفصل عن العجب ، فإن العجب لا يستدعى غير المعجب ، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً ، ولا يتصور أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه ، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام ، حقر من دونه وازدراه ، وصفة هذا المتكبر ، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً .

وآفة الكبر عظيمة ، وفيه يهلك الخواص ، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء . وكيف لا تعظم آفته ، وقد أخبر النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** »[4]. وإنما صار حجاباً دون الجنة ، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين ، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، فلا يقدر على التواضع ، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب ، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح ، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم . فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه . ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له . وقد تحصل المعرفة للمتكبر ، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق ، كما قال ــ تعالى ــ: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾[5]. ﴿ **فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا** ﴾[6]. ﴿ **إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا** ﴾[7]. وآيات كثيرة نحو هذا ، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب « الجنة » رقم [٣٥ ، ٣٦] ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده [٣١٤/٢] .
(٢) رواه الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب .
(٣) الترمذى فى القيامة باب [٤٧] [٢٠٣/٩] وقال : حديث حسن صحيح والإمام أحمد فى المسند [١٧٩/٢] .
(٤) تقدم تخريجه . (٥) النمل : ١٤ . (٦) المؤمنون : ٤٧ .
(٧) إبراهيم : ١٠ .

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم ، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله ــ تعالى ــ، كما حمل إبليس كبره على آدم ــ عليه السلام ــ أن امتنع من امتثال أمر ربه فى السجود . وقد شرح رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ الكبر فقال : « **الكبر : بطر الحق وغمط الناس** »(١). ومعنى غمط الناس : الازدراء بهم ، واستحقارهم . ويروى : غمص الناس بمعنى غمط الناس .

● فصل فى تقسيم آفات الكبر

واعلم : أن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات : **الأولى** : أن يكون الكبر مستقراً فى قلب الإنسان منهم ، فهو يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ، فهذا فى قلبه شجرة الكبر مغروسة ، إلا أنه قد قطع أغصانها . **الثانية** : أن يظهر لك بأفعاله من الترفع فى المجالس ، والتقدم على الأقران ، والإنكار على من يقصر فى حقه ،فترى العالم يُصَعِّر خده للناس(*) ، كأنه معرض عنهم ، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم ، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، حين قال : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾(٢) .

الدرجة الثالثة : أن يظهر الكبر بلسانه ، كالدعاوى والمفاخر ، وتزكية النفس ، وحكايات الأحوال فى معرض المفاخرة لغيره ، وكذلك التكبر بالنسب ، فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً . قال ابن عباس : يقول الرجل للرجل . أنا أكرم منك ، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾(٣) . وكذلك التكبر بالمال ، والجمال ، والقوة ، وكثرة الأتباع ، ونحو ذلك ، فالكبر بالمال أكثر ما يجرى بين الملوك والتجار ونحوهم . والتكبر بالجمال أكثر ما يجرى بين النساء ، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب . وأما التكبر بالأتباع والأنصار ، فيجرى بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود ، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين . وفى الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً ، فإن لم يكن فى نفسه كمالاً ، أمكن أن يتكبر به ، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور ، لظنه أن ذلك كمال .

واعلم : أن التكبر يظهر فى شمائل الإنسان ، كصَعَرِ وجهه ، ونَظَرِه شزراً ، وإطراق رأسه ، وجلوسه متربعاً ومتكئاً ، وفى أقواله ، حتى فى صوته ونغمته ، وصيغة إيراده الكلام ، ويظهر ذلك أيضاً فى مشيه وتبختره ، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته . ومن خصال المتكبر : أن يحب قيام الناس له . والقيام على ضربين : قيام على رأسه وهو قاعد ،

---

(١) تقدم ذكر هذا الحديث وتخريجه .

(*) الصَّعَر : المَيَل فى الخَدّ خاصة ، وقد صَعَّرَ خدَّهُ أى أمالَهُ من الكِبر ، ومنه قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **ولا تُصَعِّر خدك للناس** ﴾ .

(٢) الشعراء : ٢١٥ . (٣) الحجرات : ١٣ .

فهذا منهى عنه ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **من أحب أن يتمثل له الرجال بين يديه قياماً فليتبوأ مقعده من النار** » . وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين . **الثانى** : قيام عند مجيء الإنسان ، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك . قال أنس : لم يكن شخص أحب إلينامن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك .

وقد قال العلماء : يستحب القيام للوالدين والإمام العادل ، وفضلاء الناس ، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل ، فإذا تركه الإنسان فى حق من يصلح أن يفعل فى حقه ، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته ، والتقصير فى حقه ، فيوجب ذلك حقداً . واستحباب هذا فى حق القائم لا يمنع الذى يقام له أن يكره ذلك ، ويرى أنه ليس بأهل لذلك . ومن خصال المتكبر : أن لا يمشى إلا ومعه أحد يمشى خلفه . ومنها أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس . ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه . وقد روى أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، فتنطلق به فى حاجتها . وقال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبى روّاد ، وإن فخذى لتمس فخذه فنحيت نفسى عنه ، فأخذ ثيابى فجرنى إليه وقال : لِمَ تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة ، وإنى لا أعرف منكم رجلاً شراً منى ؟!

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً فى بيته ، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ. ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته ، وقد اشترى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ شيئاً وحمله . وكان أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها . واشترى عمر ــ رضى الله عنه ــ لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته . واشترى على ــ رضى الله عنه ــ تمراً فحمله فى ملحفة ، فقال له قائل : أحمل عنك ؟ قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل . وأقبل أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب ، وهو يومئذ خليفة مروان ، فقال لرجل ، أوسع الطريق للأمير . ومن أراد أن ينفى الكبر ، ويستعمل التواضع ، فعليه بسيرة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، وقد سبقت الإشارة إليها فى كتاب « آداب المعيشة » .

● بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم : أن الكبر من المهلكات ، ومداواته فرض عين ، ولك فى معالجته مقامان :

• **الأول** : فى استئصال أصله وقطع شجرته ، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه ، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل من كل ذليل ، ويكفيه أن ينظر فى أصل وجوده بعد العدم من تراب ، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول ، ثم من علقة ، ثم من

مضغة ، فقد صار شيئاً مذكوراً ، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يحس ولا يتحرك ، فقد ابتدأ بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته ، وبفقره قبل غناه . وقد أشار الله ــ تعالى إلى هذا بقوله : ﴿ مِن أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾[1] . ثم امتن عليه بقوله : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾[2] ، وبقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[3] . فأحياه بعد الموت ، وأحسن تصويره ، وأخرجه إلى الدنيا ، فأشبعه وأرواه ، وكساه وهداه وقواه . فمن هذا بدايته ، فأى وجه لكبره وفخره ؟ على أنه لو دام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق ، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة ، والأمراض الهائلة ، بينما بنيانه قد تم ، إذ هو قد وهى وتهدم ، لا يملك الشيء لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بينما هو يذكر الشيء فينساه ، ويستلذ الشيء فيرديه ، ويروم الشيء فلا يناله ، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة .

هذا أوسط حاله ، وذاك أول أمره ، وأما آخر أمره ، فالموت الذى يعيده جماداً كما كان ، ثم يلقى فى التراب فيصير جيفة منتنة ، وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ، ويأكل الدود أجزاءه ، ويعود تراباً يعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاؤه المتفرقة ، ويحضر عرصة القيامة ، فيرى أرضاً مبدلة ، وجبالاً مسيرة ، وسماءً منشقة ، ونجوماً منكدرة ، وشمساً مكوَّرة ، وأحوالاً مظلمة ، وجحيماً تزفر ، وصحائف تنشر ، ويقال له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[4] ، فيقول : وما كتابى ؟ فيقال : كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل ، من قليل وكثير ، وقيام وقعود ، وأكل وشرب ، وقد نسيت ذلك ، وأحصاه الله ــ تعالى ــ ، فهلم إلى الحساب عليه ، وأعد جواباً له ، وإلا فأنت تساق إلى النار ، فما لمن هذه حاله التكبر ؟ فإن صار إلى النار ، فالبهائم أحسن حالاً منه ، لأنها تعود إلى التراب ، ومن هذا حاله وهو على شك من العفو عن أخطائه ، كيف يتكبر ؟! ومن الذى يسلم من ذنب يستحق به العقوبة ، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط ، فحبس فى السجن ليخرج فيعاقب ، وهو منتظر أن يدعى به لذلك . أفتراه يتكبر على أهل السجن ؟ وهل الدنيا إلا سجن ، وهل المعاصى إلا موجبة للعقاب ؟

وأما معرفة ربه ، فيكفيه أن ينظر فى آثار قدرته وعجائب صنعته ، فتلوح له العظمة ، وتظهر له المعرفة ، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر . ومن العلاج العملى التواضع بالفعل لله ــ تعالى ــ ولعباده ، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين ، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة .

*** المقام الثانى :** فيما يعرض من التكبر بالأنساب ، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب ،

(١) ، (٢) عبس : ١٨ ــ ٢٠ . (٣) الإنسان : ٢ . (٤) الاسراء : ١٤ .

فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره ، ثم يعلم أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قذرة ، وأباه البعيد تراب ، ومن اعتراه الكبر بالجمال ، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم ، ومن اعتراه من جهة القوة ، فليعلم أنه لو آلمه عرق ، عاد أعجز من كل عاجز ، وإن حُمَّى يوم تُحلِّحلُ من قوَّته ما لا يعود فى مدة ، وأن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته ، وبقة لو دخلت فى أذنه لأقلقته . ومن تكبر بسبب الغنى ، فإذا تأمل خلقاً من اليهود ، وجدهم أغنى منه ، فأنَّ لشرف تسبق به اليهود ، ويستلبه السارق فى لحظة ، فيعود صاحبه ذليلاً . ومن تكبر بسبب العلم ، فليعلم أن حجة الله على العالم آكد من الجاهل ، وليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره . وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق بالله ــ سبحانه ــ ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله ــ تعالى ــ بغيضاً عنده ، وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع .

واعلم : أن هذا الخُلُق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط : فطرفه الذى يميل إلى الزيادة تكبراً . وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة . والوسط يسمى تواضعاً ، وهو المحمود ، وهو أن يتواضع من غير مذلة ، فخير الأمور أوساطها ، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر ، ومن تأخر عنهم ، فهو متواضع ، لأنه قد وضع شيئاً من قدره ، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه ، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب ، فقد تخاسس وتذلل ، فذلك غير محمود ، بل المحمود العدل ، وهو أن يعطى كل ذى حق حقه ، لكن تواضعه للسوقة بالرفق فى السؤال واللين فى الكلام ، وإجابة الدعوة ، والسعى فى الحاجة ، ولا يحقره ، ولا يستصغره ، والله أعلم .

● الفصل الثانى فى العجب

روى عن أبى هريرة عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **بينما رجل يتبختر فى بردين وقد أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل**(*) **فيها إلى يوم القيامة** »(١) . وقال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء بنفسه** »(٢) . وروى عن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : الهلاك فى شيئين : العجب ، والقنوط . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير ، والقانط لا يطلب ، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى . قال مطرف ــ رحمه الله ــ: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً ، أحبُّ إلىَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً .

(*) تجلجل فى الأرض ساخ فيها ودخل .

(١) رواه أحمد فى المسند [٣١٥/٢ ، ٤١٣ ، ٤٦٧ ، ٤٩٧ ، ٥٣١] ــ [٤٠/٣] ــ [٦٣/٤] ــ [٣٧٦/٥] .

(٢) تقدم تخريجه .

واعلم : أن العجب يدعو إلى الكبر ، لأنه أحد أسبابه ، فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة ، وهذا مع الخلق . فأما مع الخالق ، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها ، فكأنه يمن على الله ــ تعالى ــ بفعلها ، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها ، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها . وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها . والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن انضاف إلى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً ، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به ، والإدلال يوجب توقع الجزاء ، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده .

● فصل فى علاج العجب

اعلم : أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك ، فلا معنى لعجب عامل بعمله ، ولا عالم بعلمه ، ولا جميل بجماله ، ولا غنى بغناه ، إذ كل ذلك من فضل الله ــ تعالى ــ، وإنما الآدمى محل لفيض النعم عليه ، وكونه محلاً له نعمة أخرى . فإن قلت : إن العمل حصل بقدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك فمن أين قدرتك ، وكل ذلك من الله ــ تعالى ــ لا منك ، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه ، وهذا المفتاح بيد الله ــ تعالى ــ، وما لم تعط المفتاح لا يمكنك العمل كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تُعطى مفتاحها . وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة** » ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « **ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل** »[1] .

واعلم : أن العجب يكون بالأسباب التى بها يقع الكبر ، وقد سبق ذكرها وعلاجها . ومن ذلك العجب بالنسب ، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه ، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آباءه ، وظن أنه ملحق بهم ، فقد جهل ، وإن اقتدى بهم ؛ فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم ، بل الخوف والإزراء على النفس . وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة ، لا بنفس النسب . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتْقَاكُم** ﴾[2] ، وقال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **يافاطمة ، لا أغنى عنك من الله شيئاً** »[3] . فإن قلت : إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته .

فالجواب : أن كل المسلمين يرجون الشفاعة ، وقد يشفع فى الشخص بعد إحراقه بالنار ، وقد يقوى الذنب فلا تنجى الشفاعة . وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ــ رضى

(١) رواه البخارى فى « الرقاق » باب « القصد والمداومة على العمل » رقم [٦٤٦٣] ، مسلم فى كتاب « المنافقين » رقم [٧١ ــ ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨] .

(٢) الحجرات : ١٣ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الوصايا » باب [١١] رقم [٢٧٥٣] ، الإمام أحمد فى المسند =

الله عنه ــ أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **لا ألْفِيَنَّ**(*) **أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء ، فيقول : يارسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك** »(١) . ومثل المنهمك فى الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة ، كمثل المريض المنهمك فى الشهوات ، اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق ، وذلك جهل ، فإن اجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها . ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة ، فكيف يتكل من ليس فى مثل مراتبهم ؟! ومن ذلك العجب بالرأى الخطأ ، كما قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً** ﴾(٢) . وعلاج هذا أشد من علاج غيره ، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يُصغ إلى نصح ناصح ، وكيف يترك ما يعتقده نجاة ؟! وإنما علاجه فى الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً ، لا يغتر به ، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ، أو سنة أو دليل عقلى جامع لشروط الأدلة ، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة . والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب ، ولكن يقف عند اعتقاد الجمل ، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له ، ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾(٣) ، وأن رسوله صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير ، ويصرف زمنه فى التقوى ، وأداء الطاعات ، فمتى خاض فى المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته ، هلك .

● كتاب الغرور واقسامه ودرجاته

ومن الناس من غرته الدنيا ، فقال : النقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، وهذا محل التلبيس ، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة ، إلا إذا كان مثل النسيئة . ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف جزء إلى أن ينقطع النفس ، وإنما أراد من قال : النقد خير من النسيئة ، إذا كانت النسيئة مثل النقد ، وهذا غرور الكفار . فأما ملابسو المعاصى مع سلامة عقائدهم ، فإنهم قد شاركوا الكفار فى هذا الغرور ، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار ، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد . ومن العصاة من يغتر ، فيقول : إن الله كريم ، وإنما نتكل على عفوه ، وربما اغتروا بصلاح آبائهم . وقد قال العلماء : من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا الغفران مع الإصرار ، فهو مغرور .

وليعلم أن الله ــ تعالى ــ مع سعة رحمته شديد العقاب ، وقد قضى بتخليد الكفار فى النار ، مع أنه لا يضره كفرهم ، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عباده فى

= [٢٠٦/١] . (*) لا أجِدَنَّ .

(١) رواه البخارى فى « الحيل » باب « احتيال العامل ليُهدى له » رقم [٦٩٧٩] ، ومسلم فى « الإمارة » رقم [٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨] . (٢) فاطر : ٨ . (٣) الشورى : ١١ .

الدنيا ، وهو سبحانه قادر على إزالتها ، ثم خوفنا من عقابه ، فكيف لا نخاف ؟! فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل ، وما لا يبعث على العمل فهو غرور يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة ، وإيثار المعاصى . والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا ، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا ، أتراهم عرفوا من كرم الله ــ تعالى ــ ما لم يعرف الأنبياء والصالحون . ولو كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم ؟! وهل ذم أهل الكتاب بقوله : ﴿ **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** ﴾[1] . إلا لمثل هذا الحال ؟! وأما من اغتر بصلاح آبائه ، فهلا يذكر قصة نوح ــ عليه السلام ــ مع ابنه ، وإبراهيم ــ عليه السلام ــ مع أبيه .

ويقرب من هذا الغرور ، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصى ، إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح ، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغصب أضعاف ذلك ، ولعل الذى تصدق به من المغصوب ، ويتكل على تلك الصدقة ، وما هو إلا كمن وضع درهماً فى كفة وألفاً فى أخرى ، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف . ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه ، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته ، ولا يحاسب نفسه على سيئاته ، ولا يتفقد ذنوبه ، كالذى يستغفر الله ويسبحه مائة مرة فى اليوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين ، ويتكلم بما لا يُرضى ، فهو ينظر فى فضائل التسبيح والاستغفار ، ولا ينظر فى عقوبة الغيبة والكلام المنهى عنه .

● فصل الاغترار واقع بالعلماء والعُبّاد

ويقع الاغترار فى الأغلب فى حق أربعة أصناف : العلماء ، والعبّاد ، والمتصوفة ، والأغنياء .

الصنف الأول ــ العلماء : فأما أهل العلم ، فالمغترون منهم فرق : منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية ، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى ، وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم من الله بمكان ، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة ، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل ، ولولا العمل لم يكن له قدر . قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴾[2] . ولم يقل : قد أفلح من تعلم كيف يزكيها ، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم ، فليذكر ما ورد فى العالم الفاجر ، كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** ﴾[3] ، و ﴿ **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً** ﴾[4] .ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر ، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا

---

(١) الأعراف : ١٦٩ . (٢) الشمس : ٩ . (٣) الأعراف : ١٧٦ . (٤) الجمعة : ٥

الصفات المذمومة منها ، كالكبر والحسد والرياء ، وطلب العلو ، وطلب الشهرة ، فهؤلاء زينوا ظاهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** »[1].

فتعاهدوا الأعمال ، ولم يتعاهدوا القلوب ، والقلب هو الأصل ، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعاً ، فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بقلعه ، فأخذ يجز رءوسه وأطرافه ويترك أصوله ، فلم تزل أصوله تقوى . وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة ، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم ، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة . قال أحدهم : ما هذا بكبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم ، وإرغام المبتدعين ، فإني لو لبست الدون من الثياب ، وجلست فى الدون من المجالس ، شمتت بى أعداء الدين ، وفرحوا بذلّى ،وفى ذلى ذل الإسلام ، وينسى الغرور ، وأن إبليس هو الذى سول له هذا بدليل أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة .

وقد روينا عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ، ونزع خفيه وأمسكهما ، وخاض الماء ، ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض ، فصك فى صدره وقال : أوّهْ لو غيرك يقول هذا ياأبا عبيدة إنكم كنتم أذل وأحقر الناس ، فأعزكم الله برسوله ، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله[2]. وفى رواية عنه : لما قدم الشام ، استقبله الناس وهو على بعيره . فقيل له : لو ركبت برذوناً تلقى به عظماء الناس ووجوههم ؟ فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ: لا أراكم هٰهنا ، إنما الأمر من هٰهنا ــ وأشار بيده إلى السماء ــ خلوا سبيل جملى . ثم العجب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة ، والخيول الفارهة ونحو ذلك . وإذا خطر له خاطر الرياء قال : إنما غرضى بهذا إظهار العلم والعمل ، لاقتداء الناس بى ليهتدوا إلى الدين ، ولو كان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، لأن من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحهم على يد من كان . وكذلك من يدخل منهم على سلطان ، ويتودد إليه ، ويثنى عليه ، ويتواضع له ويقول : إنما غرضى بهذا أن أشفع فى مسلم أو أدفع عنه الضرر ، والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك .

وقد ينتهى غرور بعضهم إلى أنه يأخذ من مالهم الحرام ويقول : هذا مال لا مالك له ، وهو لمصالح المسلمين ، وأنت إمام من أئمتهم ،فيغير بهذا التلبيس من جهة نظره إلى نفسه ،

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب « البر » رقم [٣٢] ، الإمام أحمد فى مسنده [٢/٢٨٥ ، ٥٣٩] .
(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه [١/٦٢] وقال صحيح ، وأقره الذهبى .

وربما كان دجّالا من الدّجالين من جهة قوله : هذا مال لا مالك له . وغاية الأمر وقوع الاختلاط فى الأموال ، وذلك لا يمنع كونها حراماً ، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال . وفرقة أخرى أحكموا العلم ، وطهروا جوارحهم وزيّنوها بالطاعات ، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك ، ولكن بقيت فى زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها وأهملوها،فترى أحدهم يسْهرُ ليله وينْصب(*) نهاره فى جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها ، ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله ــ تعالى ــ، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت ، ولعله لا يخلو فى تصنيفه من الثناء على نفسه ، إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة ، وإما ضمناً بالطعن فى غيره ليبين فى طعنه فى غيره أنه أفضل من ذلك الغير ، وأعظم منه علماً . فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التى لا يفطن لها إلا الأكياس الأقوياء ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ويحرص على صلاحها .

ومن سرته حسنته وساءته سيئته ، فهو مرجو أمره ، بخلاف من يزكى نفسه ويظن أنه من خيار الخلق ، فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم . فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات ، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش ، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصى من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل ، والمشى إلى ما لا يجوز ، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات ، فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، والآخر من حيث العلم .

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك ، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة ، وجعل يكرر ذلك ، وذلك غاية الغرور . وسبب غروره ما سمع فى النقل من تعظيم الفقه ، ولم يدر أن الفقه هو الفقه عن الله ــ تعالى ــ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى . وقد قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ من كُلِّ فرْقَةٍ مِنْهُم طَائفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ** ﴾ الآية(1) . والذى يحصل له الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال ،ودفع القتل والجراحات . والمال فى طريق الله ــ تعالى ــ آلة ، والبدن مركب . وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق ، وقطع عقبات القلب التى هى من الصفات المذمومة ، فهى الحجاب بين العبد وبين الله ــ تعالى ــ. ومثال من اقتصر على ذلك ، كمثل من اقتصر فى سلوك الحج على علم خرز الرلوية والخف ، ولا شك أنه لا بد من ذلك : ولكن ليس من الحج فى شىء . ومن هؤلاء من اقتصر على

(*) النَّصَبُ : التَّعَب . (1) التوبة : ١٢٢ .

علم الخلاف ، ولم يهمه إلا طريق المجادلة ، والإلزام ، والإفحام ، ودفع الحق لأجل الغلبة ، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم ، وجميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف .

وأما أدلة الأحكام ، فيشتمل عليها علم المذهب ، وهى كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ.وأما حيل الجدل ، من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب ، والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام . وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء ، والرد على المخالفين . ثم هؤلاء طائفتان : ضالة ، ومحقة ، فالضالة التى تدعو إلى غير السنة ، والمحقة التى تدعو إلى السنة ، والغرور شامل لجميعهم . أما الضالة ، فاغترارها ظاهر ، وأما المحقة فاغترارها من حيث أنها ظنت أن الجدال أهم الأمور ، وأفضل القربات فى دين الله ــ تعالى ــ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل ، فليس بكامل الإيمان ، فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم فى تعلم الجدل والبحث عن المقالات ، وعميت بصائرهم ، فلم يلتفتوا إلى القرن الأول ، وأن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى ، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات ، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال ، فإن رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير مماراة ولا جدل . وقد روى فى الحديث : « **ما ضل قوم بعد هُدًى إلا أوتوا الجدل** »[1] .

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ ، وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص ، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها ، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه ، فهم أعظم الناس غرة . ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب فى الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للأغراب . ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن يكثر الصياح فى مجالسهم والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس . ومنهم فرقة استغرقوا أوقاتهم فى سماع الحديث ، وجمع روايته ، وأسانيده الغريبة والعالية ، فهمُّ أحدهم أن يدور البلاد ، ويرى الشيوخ ليقول : أنا أروى عن فلان ، ولقيت فلاناً ، ولى من الإسناد ما ليس لغيرى . ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر ، وزعموا أنهم علماء الأمة ، وأذهبوا أعمارهم فى دقائق النحو واللغة ، ولو عقلوا لعلموا أن مضيِّع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيِّع عمره فى معرفة

---

(١) رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وصححه فى كتاب « التفسير » ــ تفسير سورة الزخرف ــ وزاد بعد « هدى » : « كانوا عليه » ، وهو عند ابن أبى الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف [تخريج الإحياء ١١٣/٣] ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده [٢٥٢/٥ ، ٢٥٦] .

لغة الترك ، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفى من اللغة علم الغريبين : غريب القرآن ، والحديث ، ومن النحو مايقوم به اللسان . فأما التعمق إلى درجات لا تتناهى ، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم .

ومثال التعمق فى ذلك ، مثال من ضيَّع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرآن ، مقتصراً على ذلك ، وذلك غرور ، لأن المقصود من الحروف المعانى ، وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى شرب السكنجبين لإزالة الصفراء ، فضيع عمره فى تحسين القدح الذى يشرب فيه ، فهو مغرور ، والسعيد من أخذ من كل شىء من هذا حاجته المهمة لا غير ، وتجاوز إلى العمل ، واجتهد فيه وفى تصفيته من الشوائب ، فهذا هو المقصود . وفرقة أخرى عظم غرورهم ، فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق ، وظنوا أن ذلك ينفعهم ، بل ذلك غرور ، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تبرئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله ــ تعالى ــ . وكذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول لزوجته ، واتهابه مالها لإسقاط الزكاة ، ونحو ذلك من أنواع الحيل .

الصنف الثانى ــ أرباب التعبد والعمل ، وهم فرق : فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل ، وربما تعمقوا فى استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة فى الوضوء ، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً ، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة فى التنجس ، ولا يقدر ذلك فى مطعمه ، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم ، لكان أشبه بسير السلف ، فإن عمر ــ رضى الله عنه ــ توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة ، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع فى الحرام . وقد صح أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ توضأ من مزادة مشركة . ثم منهم من يخرج إلى الإسراف فى الماء ، ويطول به الأمر ، حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها . ومنهم من غلبت عليه الوسوسة فى تكبيرة الإحرام فى الصلاة ، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام .

ومنهم من يتوسوس فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة ، ونحو ذلك ، بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه ، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به ، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإن الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف فى تلاوة القرآن إلا ما جرت به العادة فى الكلام . ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطان ، فأخذ يؤدى الرسالة بالتأنق فى مخارج الحروف وتكراره ، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بالطرد والتأديب . وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن ، فهم يهذُّونه هذًّا[1] ، وربما ختموا فى اليوم مرتين ، فلسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأمانى ، ولا يتفكر فى معانى القرآن

(١) يسرعون فى قراءته .

ولا يتعظ بمواعظه ، ولا يقف عند أوامره ونواهيه ، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط .

ومثال ذلك ، مثال عبد كتب إليه مولاه كتاباً يأمره فيه وينهاه ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ، بل اقتصر على حفظه وتكراره ، ظاناً أن ذلك هو المراد منه ، مع مخالفته أمر مولاه ونهيه . ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن ، معرضاً عن معانيه ، فينبغى أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم ، أو بالصوت ، أو بالمعانى . وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه ، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول ، ولا بطونهم من الحرام عند الإفطار ، ولا خواطرهم عن الرياء . ومنهم من اغتر بالحج ، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم ، وقضاء الديون ، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج ، ويضيعون فى الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ، ولا يحترزون من الرفث والخصام ، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون . وفرقة أخرى أخذوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونسوا أنفسهم . ومنهم من يؤم فى مسجد ، ولو تقدم عليه أورع منه وأعلم ، ثقل عليه .

ومنهم من يؤذن ويظن أن ذلك لله ، ولو أذن غيره فى غيبته ، اشتد عليه ذلك وقال : قد زاحمنى فى مرتبتى . ومنهم من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق ببلاده ، وقول الناس : فلان مجاور بمكة أو بالمدينة ، ثم إنه يجاور ويطمع فى أوساخ الناس ، وقد يجمع ذلك ويشح به ويجتمع له جملة من المهلكات . وما من عمل إلا وفيه آفات ، فمن لم يعرفها وقع فيها ، ومن أراد أن يعرفها ، فلينظر فى كتابنا هذا ، فينظر فى آفات الرياء الحاصل فى العبادات من الصوم والصلاة وفى جميع القربات فى الأبواب المرتبة فى هذا الكتاب ، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق .

وفرقة أخرى زهدت فى المال ، وقنعت بالدون من اللباس والطعام ، وقنعت من المسكن بالمساجد ، فظنت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهم مع هذا شديدو الرغبة فى الرياسة والجاه ، فقد تركوا أهون الأمرين وباءوا بأعظم المهلكين . وفرقة أخرى حرصت على النوافل ، ولم تعتن بالفرائض ، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل ، ولا يجد للفريضة لذة ، ولا يحرص على المبادرة إليها فى أول الوقت ، وينسى قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فيما يرويه عن ربه ــ عزَّ وجلَّ ــ : « **ما تقرب المتقربون إلىَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم** »[1] .

الصنف الثالث ــ المتصوفة : والمغرورون منهم فرق : فرقة منهم اغتروا بالزى والنطق والهيئة ، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر ، ولم يتعبوا أنفسهم فى المجاهدة والرياضة ،

(١) رواه البخارى فى كتاب « الرقاق » باب « التواضع » رقم [٦٥٠٢] .

ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا فى غرض ، وهؤلاء غرورهم ظاهر . ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعانِ والأبطال من المقاتلين تثبت أسماؤهم فى الديوان ، ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار الأرض ، فاشتاقت نفسها إلى ذلك ، فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلمت من رَجَز الأبطال أبياتاً ، وتعلمت زيهم وجمع شمائلهم ، ثم توجهت إلى العسكر ، فكتب اسمها فى ديوان الشجعان ، فلما حضرت فى ديوان العرض ، أمرت بتجريد المغفر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة ، فلما جردت فإذا هى عجوز ضعيفة زمنة ، فقيل لها : جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته ، خذوها وألقوها بين أيدى الفيل ، فألقيت إليه .

فهكذا يكون حال المدعين التصوف فى القيامة إذا كشف عنهم الغطاء ، وعرضوا على الحاكم الأكبر الذى ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات والزى . وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاورة المقامات والأحوال ، والوصول إلى القرب ، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء ، فترى أحدهم يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء ، فضلاً عن العوام ، حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة ، ويرددها كأنه يتكلم عن الوحى ، ويحتقر فى ذلك جميع العلماء والعباد ، ويقول : إنهم محجوبون عن الله ، وإنه هو الواصل إلى الحق ، وإنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، لم يُحْكِمْ علماً و لم يُهَذِّبْ خلقاً ، و لم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان . وفرقة منهم طووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام ، وبعضهم يقول : إن الله مستغن عن عملى فلمَ أتعب نفسى ؟

وبعضهم يقول : لا قدر للأعمال بالجوارح ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله ــ تعالى ــ ، وواصلة إلى معرفته ، وإنما نخوض فى الدنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربانية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله ــ تعالى ــ لقوتهم فيها ، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء ، لأن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين . وأصناف غرور أهل الإباحة لا تحصى ، وكل ذلك أغاليط ووساوس ، خدعهم الشيطان بها ، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به . ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق ، واشتغلوا بالمجاهدة ، وابتدءوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة ، فلما استنشقوا مبادىء ريح المعرفة ، تعجبوا منها ، وفرحوا بها وأعجبهم غريبها ، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها ، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم ، وكل ذلك غرور ، لأن

عجائب طريق الله ــ سبحانه وتعالى ــ ليس لها نهاية . ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها ، قصرت خطاه وجره الوصل إلى القصد ، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً ، فرأى على بابه روضة فيها أزهار لم يكن رأى مثلها ، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذى يمكن فيه لقاء الملك .

الصنف الرابع ــ أرباب الأموال : وهم فرق : ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم ، ويبقى بعد الموت أثرهم ، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه فى الموضع الذى أنفق عليه لشق عليه ، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله ، لما شق عليه ذلك ، فإن الله يطلع عليه ، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه . وبعضهم يصرف المال فى زخرفة المسجد ، وتزيينه بالنقوش التى هى منهى عنها وشاغلة للمصلين ، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين . فأما إن كان المال الذى صرفه فى ذلك حراماً ، كان أشد فى الغرور . قال مالك بن دينار ــ رحمه الله ــ : أتى رجل مسجداً ، فوقف على الباب وقال ، مثلى لا يدخل بيت الله ، فكتب فى مكانه صديقاً .

فبهذا ينبغى أن تعظم المساجد ، وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد ، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام ، أو بزخرف الدنيا منة على الله ــ تعالى ــ ، فغرور هذا من حيث أنه يرى المنكر معروفاً . وفرقة أخرى يحفظون الأموال ويمسكونها بخلاً ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا تحتاج إلى نفقة المال ، كالصيام والصلاة وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل مهلك ، وقد استولى على قلوبهم ، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم . ومثالهم مثال من دخلت فى ثوبه حيَّة ، فاشتغل عنها بطبخ السكنجبين لتسكن به الصفراء . ومنهم من لاتسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط ، فيخرج الردىء من المال ، أو يعطى من الفقراء من يخدمه ، ويتردد فى حاجاته ، أو من يحتاج إليه فى المستقبل أو من له فيه غرض .

ومنهم من يسلم من ذلك إلى بعض الأكابر ليفرقه ، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم بحوائجه ، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور ، لأنه يطلب بعبادة الله ــ تعالى ــ عوضاً عن غيره . وفرقة أخرى من أرباب الأموال وغيرهم ، اغتروا بحضور مجالس الذكر ، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والاتعاظ ، وليس كذلك ، لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغباً فى الخير ، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصل إلى ذلك الغير فلا وقع له ، وربما سمع أحدهم التخويف ، فلا يزيد على قوله : ياسلام سلم ، أو أعوذ بالله ، ويظن أنه قد أتى المقصود .

ومثال هذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع يحضر عند من

يصف له الأطعمة اللذيذة ، ثم ينصرف فلا يغنى ذلك عنه ، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها ، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك ، فهو حجة عليك .

فإن قيل : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يكاد يخلص منه . فالجواب : أن مدار أمر الآخرة على معنًى واحد ، وهو تقويم القلب ، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته ، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها . وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان . ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء . **العقل** : وهو النور الأصلى الذى يدرك به الإنسان حقائق الأشياء . **والمعرفة** : التى يعرف بها الإنسان نفسه وربه ودنياه وآخرته . وفى كتاب المحبة ، وشرح عجائب القلب ، والتفكر ، وكتاب الشكر إشارات إلى وصف النفس ، ووصف جلال الله ــ سبحانه ــ. ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر فى كتاب « ذم الدنيا » وكتاب « ذكر الموت » ، فإذا حصلت هذه المعارف ، ثار من القلب بمعرفة الله ــ تعالى ــ حب الله ، وبمعرفة الآخرة حب شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها ، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله ــ تعالى ــ، وينفعه فى الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب ، صحت نيته فى الأمور كلها ، واندفع عنه كل غرور .

فإذا غلب حب الله ــ تعالى ــ على قلبه لمعرفته به وبنفسه ، واحتاج إلى الأمر الثالث وهو العلم ، ونعنى به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله ــ تعالى ــ وآفاتها ، والعلم بما يقربه منه ويهديه ، وجميع ذلك فى كتابنا هذا . فيعرف من ربع العبادات والعادات ما هو محتاج إليه ، وما هو مستغن عنه ، ويتأدب بأدب الشرع . ويعرف من ربع المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله ــ تعالى ــ، وهى الصفات المذمومة فى الخلق . ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لا بد أن توضع خلفاً من المذمومة بعد محوها ، فإذا أحاط بجميع ذلك ، أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور ، والله أعلم . وإذا فعل جميع ذلك ينبغى أن يكون خائفاً أن يخدعه الشيطان ، ويدعوه إلى الرياسة ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله ــ تعالى ــ. ولذلك قيل : والمخلصون على خطر عظيم[1] . وقال الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ للشيطان حين قال له عند الموت : فُتنى . فقل : لابعد . فلا ينبغى أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً . نسأل الله ــ تعالى ــ السلامة من الغرور ، وحسن الخاتمة ، إنه قريب مجيب . آخر الغرور . وبه تم ربع المهلكات ، ونشرع الآن فى ربع المنجيات والله أعلم وصلى الله على النبى أحمد .

(١) الخبر فى إحياء علوم الدين [٤٠٢/٣] لفظه : « الناس كلهم موتى إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم » . قلت : وهو خبر موضوع مفترى ذكره العجلونى فى كشف الخفاء رقم [٢٧٩٦] [٤١٥/٢] .